أستاذ الآداب اللاتينية

ماكسيم المادوري

المدونة الكاملة

ثيولوجيا

ترجمة ودراسة
أكرم بوعشة

هيبورجيوس
للنشر والتوزيع

تصدير
أ.د شريف الدين بن دوبه

الطبعة الأولى

رقم ISBN: 9 06 567 9969 978
الإيداع القانوني: أكتوبر 2024
صنف العمل: ترجمة ودراسة
العنوان: "ماكسيم المادوري: ثيولوجيا"
المؤلف: أكرم بوعشة
تصدير: أ.د شريف الدين بن دوبه
مراجعة لغوية: أ.د ربيعة برباق
مديرة دار النشر: عدرة بويونس
مصمم الغلاف: عبد الرؤوف خلايفية
البلد: الجزائر
السعر: 1000 دج

هيبوريجيوس للنشر والتوزيع
شارع شنفزي رقم 03 الطابق السفلي - عنابة
hipporegius.edition@gmail.com
0657026932 / 0674168924

مهدى إلى روح والدي الراحل،
رئيس جمعية أصدقاء مادور،
المهندس محمد الحسان بوعشة.

شكر وعرفان إلى:

فضيلة أ.د شريف الدين بن دوبه، أستاذ الفلسفة بجامعة مولاي الطاهر سعيدة، والذي رافقني في هذه المدونة، وساهم في هذا المنجز الفكري الذي يعيد إلى الواجهة جزء من ذاكرة الأمة وبعضًا من بريقها الكامن بين طيات الماضي. لم يكن التصدير المدرج بحسّكم الفلسفي العميق موجها للقارئ فحسب، بل كان إليّ في المقام الأول، وبه ولجت إلى روح النص وأدركت ذلك العمق الذي أعانني على سبر أغواره وتقويم ترجمته. لقد كنتم شريكا مؤتمنا على هذا الأثر، خير مرافق بما وجدته فيكم من عماد راسخ استندت إليه في نقل فكرٍ خالدٍ بأمانة وإخلاص. أجد الكلمات مهما بلغت من بلاغة، ومهما علت وتجمّلت، لا تُوفيكم حقكم من شكر وثناء، فما أسديتموه من دعم أضفى على هذا العمل أثرا جليلا، وارتقى به إلى مرتبة تليق بمقام الفلسفة وشموخها.

فضيلة أ.د ربيعة برباق، أستاذة اللسانيات بجامعة العربي التبسي تبسة، السيّدة الملهمة في جهود إحياء القضية الأمازيغية والمساهمة في رفعة شأنها، والتي كرّست كل جهدها في تدقيق النص بما يعلي من شأنه ويرتقي به ليحاكي آفاق البلاغة ومرتبة البيان. إن اللغة السديدة التي نحرص عليها خير مثال عن احترام القارئ، وإن هذه الغاية ما كنا لندركها لولا جهودك التي لا يدانيها شكر ولا يفيها امتنان.

فضيلة الناقد محمد السعيد عبدلي، أستاذ التعليم العالي بجامعة البليدة، والذي راهن على شخصي المتواضع، وآنس وحشتي في هذا الطريق. من تعابيره التي تصلني المرة تلو المرة، أحسستُ بجدوى هذا الجهد، وأمدّني بشعور المترقب لهذا المنجز، ما منحني شكلا من المعنى الذي فقدته في الذائقة الأدبية العامة التي تهيم في أدب العصر.

فضيلة الدكتور ياسين سرايعية، الدكتورة غزلان هاشمي، الدكتورة مديحة عتيق، كل أساتذة الأدب بجامعة محمد الشريف مساعدية - سوق أهراس الذين وجدت فيهم الدعم والحظوة، وتلقيت منهم خالص الدعاء لي بالتوفيق، جميعكم أسهم في هذا المنجز...

تصدير

"ماكسيم المادوري: ثيولوجيا"

أ.د شريف بن دوبه

سعيدة - الجزائر

09 أفريل 2024

في بداية البداية، أجد من الضرورة التصريح والإشادة بالمشروع الجبّار الذي تكفّل به الأستاذ الفاضل والباحث الشاب أكرم بوعشة، والذي تمثّل في إحياء التراث الفكري لمدينة مادورا (مداوروش)، إذ لم يتوان ولم يضعف أمام التحديات التي يصطدم بها كل باحث غيور على تراثه الفكري والحضاري.

ومن بين جهوده الجبارة والمباركة ترجمته لمؤلفات أفولاي -أبوليوس- باللغة العربية، والذي اجتهد فيه وجاهد كي يخرج بمشروعه هذا إلى النور، ونظرا لقيمته يمكنني عدّهُ مشروع أمّةٍ لأنه يتجاوز حدود طاقة فردٍ بعينه. ولهذا فإننا نلمس في الباحث أكرم بوعشة عظمة الانسان الجزائري الذي حاول الآخر تقزيمه وتهميشه، فقد استعان بإرادته لتذليل الصعاب، وبروحه الوطنية التي أملت عليه إحياء تراث مداوروش، المدينة الحضارة، ومنارة العلم التي شهدت ميلاد أول جامعة في العالم، فهو من أرض كانت منارة للعلم وفانوسا للحكمة. ورغم التلغيم الذي يحايث هذا الحقل الفكري على قاعدة زئبقية الترجمة، فإن الفضاء البيبليوغرافي في الجزائر شهد بأنامل المفكر الشاب ميلاد تحفتين لـ "أفولاي" وهما: أبولوجيا (Apologia) وفلوريدا (Florida).

وتستمر إنجازات المبدع الترجمية في إحياء التراث المادوري، إذ يفاجئنا في هذه الترجمة بعض ما بقي من تحف مادورية، يروم فيها الأستاذ أكرم بوعشة التعريف بشخصية ماكسيم المادوري، من خلال ما تبقى من منجز أدبي لهذه الشخصية.

ماكسيم (ماكسيموس) المادوري Maxime De Madaure

عالم لغوي لاتيني عاش في القرن الرابع الميلادي، وتم التعرف على شخصية الأديب اللغوي من خلال عناوين بعض المخطوطات التي تضمنتها رسائل القديس أوغسطين، وتم تأكيد هويته من قبل بوسيديوس في كتابه **Elenchus**. وقد كان رائدا

في فن الخطابة في مادورا واشتهر بإسهامه التاريخي في تقعيد اللغة اللاتينية واستنباط قواعدها وقوانين بنائها التركيبي والصرفي.

تذكر بعض الوثائق أنه كان أستاذا للقديس أوغستين، وأنهما تبادلا مع بعض الرسائل التي تضمّنت نقاشا وحوارا حول مسائل عدّة ومنها الأمور العقائدية، والتي حاول البعض أن يستخلص منها عقيدة ماكسيم.

ورفضه لعبادة وتقديس الشهداء، لا تدفع الى القول بأنه كان مناهضا للمسيحية، بل إقراره بإله واحد يجعلنا نسلّم بأنه من رافضي التثليث، وتقديس الأشخاص الذي أحدث تحريفا في المسيحية. ففي واحدة من رسائله التي يقدمها الباحث باللغة العربية، يقرّ ماكسيم بالتوحيد في قوله: "... ***ليس غير الناقص عقلا والفارغ روحا قد يكفر بوجود إله واحد لا غير، إله أزلي لا بداية له ولا نسب، أب قوي مجيد للجميع؟ إننا نعبد تحت أسماء مختلفة كمالاته المنتشرة في العالم الذي هو صنيعه، لأن اسمه الحقيقي غير معروف لنا جميعا دون استثناء***". والنص كاف للتدليل على عظمة ماكسيم والملمح التوحيدي لديه، وإن كان الجدل حول طبيعة المعتقد عنده لازال قيد بحث ودراسة، والحيّ كما قيل يغلب ألف ميت، فمن الصعوبة بمكان الحكم بقطعية على المسائل العقائدية خصوصا إن كانت ماضية لغياب الوثيقة، ولمحايثة الوثيقة لما يعرف بالوعي المزدوج.

والأستاذ أكرم يقدم لنا بعضا من الرسائل التي كانت بين القديس أوغسطين وماكسيم، والتي ستكون وثيقة للباحثين في التراث المادوري الذي تعرض للإتلاف والتهميش، ويظهر فيها هجوم ماكسيم على عبادة الشهداء التي جاءت بها الكنيسة المسيحية، ويضع فيها مقاربة أنطولوجية بين التعددية الوثنية اليونانية، وعبادة الشهداء في المسيحية، حيث يقول: "***ليس علينا أن نصدّق حديث اليونان عن عرش الآلهة في جبل أوليمبس، ما دمنا نرى ونؤمن بأن الساحة العامة بمدينتنا مأهولة بآلهة***

خيّرة...". (ينظر رسائل ماكسيم وأوغستين، ترجمة: أكرم بوعشة). ونستخلص من هذه المقارنة أو المقاربة أنّ تعددية الآلهة مسألة ثقافية، فإذا كان اليونان قد رسّموا آلهة لهم للعبادة، فإن أهل مادورا أيضا لهم الحق في إبداع آلهة خاصة بهم، تكون في منظورهم صحيحة، وقرينة التشابه بينها وبين المسيحية في مسألة عبادة الشهداء تكون جليّة. لأن الأصل في الوثنية اليونانية أو الرومانية هو تقديس الأبطال أو الشخصيات الاجتماعية والتي تحوّلت عبر التاريخ إلى رموز مقدّسة ثم إلى آلهة بعد ذلك.

الكلمات والعبارات الأخيرة في نص الرسالة تكشف عن البعد التجريدي التوحيدي عند ماكسيم، فالله واحد عند الجميع، ولكن الثقافات وراء هذه الاختلافات بين البشر، ويبدو أن ماكسيم يتمثّل عبارة اكسينوفان في التعددية والتي جاء فيها: " ... ***حقيقة الإله وراء خيال الإنسان، وإنما يتخيل الإنسان أربابه على هيئته ويعزو إليها أخلاقًا كأخلاقه وأعمالا كأعماله، ولو كان للحصان يد تُحسن التصوير وسئل أن يصور إلهه لصوره حصانًا مثله، ولو تخيل الأثيوبي ربه لتخيله أسود أفطس على مثاله، وهيهات للعقل البشري أن ينفذ إلى الحقيقة الإلهية أو يقاربها بعض المقاربة، فكل ما قيل عنها وما سيقال قد يكون فيه الصواب أو بعض الصواب، ولكنها مصادفة يجهلها القائل ولا يقيسها السامع بقياس معلوم***. (الله، عباس محمود العقاد. ص: 118)

والتحفة التي يقدّمها لنا الأستاذ أكرم بوعشة تتضمن محاورة فلسفية بعنوان: سوفرونيم وأديلوس "Sophronime et Adélos" والتي استند فيها على ما نقله إلى الفرنسية الفيلسوف الفرنسي فولتير "Voltaire" وبقيت محفوظة ضمن مؤلفات الفيلسوف، وهي محاورة من حيث الحجم صغيرة، ولكنها من حيث المضامين عميقة وثرية، إذ يسائل ماكسيم فيها جلّ القضايا الفلسفية: الموت، أصل الوجود، العناية الإلهية وغيرها.

وإذا أردنا الوقوف عند دلالات العنوان، فإننا نجد أنها تشير الى حوار الحكمة مع الجهل، أو جدلية المطلق والنسبي، إذ استعار ماكسيم كلمة سوفرونيم "Sophronime" التي تتقاطع مع "Sophroniste" والتي تعني في اللغة الاغريقية الحكيم أو المدرب أو المربي الذي يلقّن الشباب الحكمة، ويغرس فيهم حب الفضيلة، ونجد إشارة في كتاب فولتير بأن سوفرونيم تشير الى الفكر والحسّ السليم، أمّا أديلوس فتدلّ على ظلامية الجهل والبلادة الفكرية.

يعدّ نصّ سوفرونيم وأديلوس من فنون الحوار والمناظرات الفلسفية، وحركة الجدل الحاضرة في المحاورة، يستحضر فيها ماكسيم منهجية سقراط في التهكُّم والتوليد من خلال تضمينه لدلالات الحكيم؛ والمربي في اصطلاح سوفرونيم، والذي يحتمل أن تشير بشكل أو بآخر إلى والد سقراط سوفرونيسك "Sophronisque"، كما يمكن قراءتها تأويليا بأنها ترمز إلى رحم المعرفة والحكمة الذي يحمل مقدمات التفكير السليم، والحكمة القويمة.

تندرج المحاورة ضمن الثنائيات الضدّية التي تتأسّس عليها المنظومات الفلسفية، والتي تقرّ بوجود عنصرين متضادين متكاملين، تكون فيها علاقة التوازي حاضرة، فالتعارض الموجود بين الحكمة والمعرفة والجهل لا يدخل في صورة التناقض بل في علاقة تقابلية تكاملية، فأعلى درجات المعرفة في التقليد الفلسفي هي الاقرار بالجهل، فكما أثر عن سقراط: "***لا أعلم إلا شيئا واحدا وهو إنني لا أعرف شيئا***". فالجهل شعور بمحدودية الفرد في اكتساب المعرفة، ومن بين أشكال الجهل الاعتقاد القطعي في امتلاك المعرفة.

ولكن دلالات الجهل المضمنة في المحاورة لا تشير إلى غياب المعرفة عند أديلوس، بل التشكيك فيما نملك من معارف، وما ندّعيه من امتلاك لها، فالحقيقة ليست معطيات جاهزة ونظريات سكونية تستقر على حال واحد، بل هي سيرورة وصيرورة

للأفكار؛ فـ"أديلوس" ليس جاهلا وبعيدا عما أنتجته البشرية من أفكار ونظريات، بل هو واسع الاطلاع. في كل أجزاء الحوار يفاجئنا بالحديث عن الكتاب والحكماء، تضمينا تارة، وتصريحا تارة أخرى، وعلى سبيل المثال في سياق التضمين: "... ***أقرّ لك بعجزي عن النظر إلى الموت بتلك الأعين اللامبالية التي لا يرى بها إلا بعض الحكماء كما يقولون***". وفي لحظة التصريح: "... ***وقد بلغ بي الفضول حدّ قراءة كتاب يُنسب إلى الكلدانيين، يسمّونه الكوهلث (الواعظ)، يخاطبني فيه المؤلف بالقول***...".

فالقصد من الجهل وغياب المعرفة ليس التحطيم والتشكيك بل إعادة بناء المعرفة، فالشك المتضمن في الحوار ليس الشك المذهبي الذي يروم بلبلة الفكر والوقوف عند الحيرة والاندهاش التي تشعر الانسان بقصوره عن إدراك الحقائق، مما يؤصّل للعبثية في الغاية من الكون، وبالتالي التحرر من كل التزام اتجاه الطبيعة، ونحو بني الانسان والذي عرف فيما بعد بفلسفة العبث.

مسألة الموت:

الموت من أهم الإشكالات الإنسانية التي كانت ولازالت تؤرق الإنسان، فتفسير الظاهرة علميا لازال نسبيا رغم التطورات التي عرفتها البشرية في تقنيات الأبحاث العلمية، ولهذا، إذا نظرنا الى التصورات التي قدّمها الأسلاف، سواء كانوا فلاسفة أو رجال دين، فإننا نجدها ذات قيمة مقارنة بالمستوى العلمي آنذاك.

وإذا اعتبرنا القلق من الموت حالة طبيعية شغلت الإنسان في محاولة تفسيره، بل وتفسير الخوف منه فيما تجلى من محاولة سقراط تهدئة ثورة أصدقائه وتلاميذه قبل أن يتجرع السم، فإن الأمر يضعنا أمام ظاهرة القلق من الموت. واهتمام الفكر الحديث والمعاصر بالمسألة يكشف لنا عن أهمية المسألة وخطورتها في الوعي الإنساني، وعلى قاعدة أسبقية الخطاب الشفهي على النص المكتوب فإن هذه المحاورة تعدّ من

النصوص الأولى التي تتحدث عن قلق الموت، وليس الموت كظاهرة انطولوجية، ولهذا يمكن القول إنه نصّ قاعدي وتقعيدي لموضوع القلق من الموت.

يبدأ أديلوس بالإشارة إلى محدودية وسخافة النظرات العامة إلى الموت مقارنة بالنظرة الحكيمة إلى الموت، حيث يقر بالعجز والمحدودية، والذي يحتمل وجهين: سلبي وهو ضعف النظرة الواقعية للموت، أما البعد الايجابي فهو الاقرار بالعجز والذي يشكِّل مدخلا لازما لبلوغ لحظة المعرفة الحصولية.

يعتمد أديلوس على مقدمات في التعاطي مع مسألة الموت والمصير، مقدمات لا تفتقر الى الصدقية، بل تحمل كثيرا من الصواب بالاعتماد على ملاحظات استقرائية، ومنها التأسّي عن فراق الممتلكات والأشياء التي أفنينا عمرنا في تحصيلها، من فراق لكل محبوب.

كما يظهر أديلوس موقف الانسان العامي من الكتاب أو عالم النظر فعلى حدّ تعبيره: "... ***وفيما نقّبتُ بشغف في كل الكتب بحثا عن التوضيح والعزاء، لم أجد غير الحبر على الورق***". فالمفارقة بين عالم الفكر والنظر وعالم الفعل (الواقع) تنتج نفورا وامتعاضا من العموم على الفكر والفلسفة، والذي يكشف عن ثغرة في المنظومة الفلسفية. ورغم كون الغايات من الكتابة والبحث عن المعرفة هو مساعدة العامة على تجاوز الحواس والعوائق المعرفية والثقافية التي تكبّلهم، والعمل على تحريرهم من الأوهام، إلا أنّ النتيجة التي وصل إليها العلم والعلماء والمفكرون تتعارض مع الغايات المرجوة من البحث العلمي والأكاديمي، وعليه يكون البحث العلمي مجرّد عبث.

والكتابة في صيغة الثنائيات بارزة في الحوار، وفي كثير من الأحيان تجعل الاشتراك في المصير، بالنسبة إلى الحكيم والجاهل، ينطلق من اعتبارات معينة. وفي محطات أخرى تسير في علاقات تقابلية تكشف عن الوجه المنطقي لماكسيم المادوري، فأحيانا

تكون العناصر التقابلية في صيغة تضاد تشترك فيها عناصر القضايا كما، وتختلف كيفا، وقد تكون في صيغة تناقض ترفع فيها كل صفة اشتراك سواء أكانت كمية أو كيفية، وهكذا دواليك.

وللتنبيه فقط فإن الإسهامات التأسيسية لعلم النحو أو التقعيد اللغوي لا تتعارض مع مبادئ وقواعد المنطق، وعليه فلا يمكن تغييب ماكسيم في علم المنطق، والذي يظهر جليا في جدلية العناصر وعلاقاتها التقابلية في المحاورة.

والنص التالي يبيّن لنا التقاء المتناقضات في لحاظ معينة وهي النتيجة أو المصير بالمفهوم النسقي، ويوظف فيها ماكسيم منهجيته المنطقية الخاصة والتي تعرف بمنهجية الرد الى اللامبرهنات: "... ***وهل في تعلّم شيء طائلٌ قد أرتجيهِ، إن كنتُ سأفنى كالجاهل والسفيهِ؟ ألا تلقى ذاكرة الحكيم والأحمق نفس العُقبان؟ أليس البشر والحيوان في الموت مثلان؟ أليس حالهما سيّان؟***".

ويجدر بنا التنبيه إلى جزئية مهمة أشار إليها ماكسيم هنا، وهي قيمة المعرفة الإنسانية التي تعد من الإشكالات الرئيسة في الفلسفة. فالسؤال الذي يطرحه أديلوس يقتضي أو يدفع المؤسّسات الأكاديمية الى مراجعة النتائج المقدمة، سواء كانت مؤلّفات أو بحوثا في مجلات، من حيث نجاعتها والنتائج المرجوة منها في تطوير المجتمع ورفع القلق الذي يراوده، ومنطق العقل يقرُّ بعبثية العمل إذا كان بعيدا ومتعاليا على إمكانيات المواطن العادي.

ولتقريب المعنى، نستأنس مثلا بأزمة المعارف النظرية المجرّدة الفلسفة، والتي واجهت انتقادات لاذعة من طرف العامة وبعض الشرائح الاجتماعية من حيث ابتعادها عن الواقع الإنساني، واعتماد المشتغلين بالفلسفة والفلاسفة على التعبير بلغة غامضة لا يضيف أية قيمة للفلسفة بل ينزلها إلى مراتب دنيا في المعرفة.

فالنجاح في رفع القلق الوجودي والغبن الاجتماعي معيار النجاح لكل نظرية أو منتوج معرفي، ويمكننا أن نضيف إلى معيار النجاح معيار القابلية للنجاح وإن كانت الفكرة بالأصل ذات مرجعية براغماتية بحتة؛ والمعرفة باعتقادنا ليست ملكا لأحد، أو لجغرافية معينة، بل الفكرة ملك للإنسان كإنسان.

وفي النتيجة يدعو ماكسيم الحكيم الى تقبُّل الحقيقة الواقعة، وهو ما يعكس الروح الرواقية "Stoïcisme" التي تدعو الى التصالح مع الوقائع الطبيعية، أو الطبيعة. ويحضر إبيكتيتوس في عدة فقرات في الحوار، والنص التالي له يكشف لنا عن التقاطع بين ماكسيم وفلسفة المدرسة: "***إذا تذكرنا إذن أن هذا هو النظام الذي وضع للأشياء، فيجب أن نتجه إلى التعليم لا لتغير أحوال العالم - فهذا ليس في مقدورنا ولا هو خير لنا -ولكن لنطابق بين عقولنا وبين الحوادث، لأن ظروفنا كما ترى وكما جعلتها الطبيعة***". ينظر: فلسفة الرواق جلال الدين سعيد منتخبات.

واختتام ماكسيم الحوار بنص إبيكتيتوس يؤكِّد التناغم والانسجام بين الروح الرواقية ورؤية المؤلف ماكسيم حينما يقول: "... ***لنمتثل مع بعض يا صديقي العزيز لنواميسه الكونية التي لا رجعة فيها، ولنناجي على مشارف الموت بمثل ما قال إبيكتيتوس: "إلهي، أنا لم أعترض على تدبيرك أبدا. لقد كنتُ سقيما لأنك شئتَ ذلك، وكنتُ أنا بذلك رضيا؛ لقد كنتُ فقيرا لأنك شئت ذلك، وكنتُ أنا بفقري حفيّا؛ لقد كنتُ في ضعةٍ لأنك شئت ذلك، وما كنتُ أنا برفع رأسي رجيّا. تريدني أن أغادر هذا العرض المهيب، لك ذلك؛ بل لك ألف شكر فوق ذلك، لأنك تفضّلت عليّ بالقبول هناك لتريني كل أعمالك، وتعرض أمام ناظريّ النظام الذي تدير به هذا الكون***".

وعلى افتراض تضمين ماكسيم نسقه ومنهجه الفلسفي في حوار سوفرونيم وأديلوس نستخلص ما يلي:

على مستوى المنهج: لم يكن ماكسيم مقلِّدا، وتابعا في أفكاره ونظرياته، بل كان انتقائيا يسلّم بعد نقد وتمحيص للنظريات بما تقبّله عقله اعتمادا على منهجية منطقية، ففي العبارة التالية: "... ***يا صديقي، لطالما اتّبعتُ منهج الانتقاء، آخذُ من كل مذهب ما بدا لي أكثر ترجيحا، وأحدّثُ نفسي بعفوية مطلقة*** ...". فالتعامل مع المواقف لم يكن عنده ذاتيا، بل كان مبنيا على دراسة علمية رصينة.

ويتجلى ذلك في موقفه من الطبيعة، يخبرنا بأنه على اطلاع بنظريات أفلاطون وشيشرون، وكان متبنيا في البداية لبعضٍ من تصوراتهم، ولكنه بعد ذلك حاول صياغة تصوّره الخاص لهذه المسألة، يقول: "... ***لطالما أقررتُ للطبيعة، على غرار أفلاطون وشيشرون، بقوة سميّة، ذكيّة بقدر ما هي قوية، وهي التي رتّبت الكون كما نراه اليوم. لم أسر يوما على رأي ايبيكوروس بأنّ الحظّ، وهو العدم ذاته، قد خلق كل شيء***".

ويلحظ المنطق الشرطي في الطرح عنده: "... ***ولما رأيتُ الطبيعة برمّتها تخضع لقوانين ثابتة، أقررتُ بوجود مشرّع؛ وبما أنّ جميع الأجرام السماوية تتحرك وفقًا لقواعد الرياضيات الأزلية، أقررتُ مع أفلاطون بوجود مهندس كوني***". فالتسليم بالقول الأفلاطوني لم يكن اعتباطا أو تقديسا، بل مستخلصا من ممارسة تأملية وبرهانية.

ويسلّم فيلسوفنا بالحتمية المطلقة على قاعدة اللزوم الضروري للنتيجة باعتبار التسليم بالحكمة والقوة الأزلية للقوة الفاعلة في الكون، والتي تتحكم في كل الجزئيات: "***ومن صنائعه نزولا، عدتُ إلى نفسي وقلتُ: من المستحيل أن يوجد في أيّ من العوالم اللانهائية التي تملأ الكون كائن واحد يفلتُ من النواميس الكونية؛ فالذي صوّر الكون بكلّ ما فيه لابد أن يكون قادرا على السيطرة عليه. ولذلك تخضعُ الأجرام السماوية، وبالمثل يحذو القمرُ والنباتُ والحيوانُ والإنسانُ حذوها***".

وفي سياق الايمان بالروح النسبية التي تقوم عليها الروح العلمية نستأنس بهذا النص الجميل: "... ***أجيبك بأنه ليس لي في معرفة المستقبل من خلاقٍ، ولا في معرفة الروح نصيبٌ يذكرُ***".

وفي فذلكة التقديم نقول إنّ هذا النص الثمين المدرج في هذا المتن البحثي الذي يقدمه لنا الأستاذ أكرم بوعشة ثري بالتصورات الفلسفية التي تعبرّ عن موقف الفيلسوف ماكسيم، ويمكن اعتماد النص كوثيقة مرجعية في استخلاص نظريته المنطقية، ونسقه الفلسفي، ومن زاوية تاريخ الفلسفة يعرّفنا النص بكثير من التصورات الفلسفية لمدارس أو فلاسفة. نترك للقارئ المتخصص استنطاق هذه الوثيقة المرجعية التي لا تعكس الافكار الفلسفية فقط، بل تعبر عن عظمة الجزائري وقوة التراث الثقافي والحضاري الذي تملكه الجزائر، والذي استُهدِف بغرض عرقلة النهضة الحضارية لأمتنا من قبل أعدائها. فألف تحية للشاب الباحث الذي يجتهد في إخراج التراث الوطني الى عالم النور، فهو ينوب عن الأمة في القيام بهذا العمل الجبار.

المقدمة

"ماكسيم المادوري: ثيولوجيا"

أ. بوعشة

بفضل من الله وتوفيقه، أضع بين أيدي الباحثين والقراء هذا الإصدار تحت عنوان "ماكسيم المادوري: ثيولوجيا" والذي يعتبر أول مدونة من نوعها تختصّ بواحدٍ من كبار معلمي نوميديا في الآداب اللاتينية، ماكسيم المادوري، النحوي الشهير الذي عاش في القرن الرابع الميلادي، والذي لم يبق من آثاره إلا عمل واحد يدعى "سوفرونيم وأديلوس"، قمنا بنقله إلى اللغة العربية في هذا الكتاب الذي يتناول بالدراسة كل ما تبقى من أعمال له ومن إشارات إليه حفظها التاريخ.

أشار الأسقف بوسيديوس إلى أصول ماكسيم، ودعاه بالمادوري في كتابه ***Operum S. Augustini Elenchus*** نسبة إلى مسقط رأسه "مداوروش" في الجزائر، كما اتّضحت وظيفته فيما أتى ذكره في رسائل أوغستين، إذ درّس الأخير قواعد اللغة في الفترة ما بين 366م-369م حين زاول دراسته بمادورا في قواعد اللغة وفن الخطابة[1]. كما تشير بعض الدراسات إلى أنه الشخص المعني بنقش أثري جنائزي غير مكتمل اكتشفه عالم الآثار الفرنسي Gsell بمادورا، يحتفي بخطيب محلي مشهور لم يبق من اسمه الكامل إلا كنيته "ماريوس"، رفعته الابنة "ماكسيما" تكريما لوالدها الذي دعته بالمعلم المحترم والمحبوب، وأشارت إلى أنه مارس أيضا مهاما إدارية على المستوى المحلي[2].

هذا الإصدار "ماكسيم المادوري: ثيولوجيا" يتضمن ترجمة مع التعليق المحكّم لحوار "سوفرونيم وأديلوس"، وهو نص فلسفي عميق، قدّمه لأول مرة الفيلسوف الشهير فرانسوا ماري آروويه[3] والمشهور باسم "فولتير"، في عمله الموسوم ***Dialogues***

---

[1] في اعترافاته، يؤكد أوغستين أنه درس بمادورا قواعد اللغة وفن الخطابة.

- Augustinus. *Confessiones*. II. 3, 5.

[2] أنظر:

- IL. Alg. I. 2209.

[3] وجد عالم اللغة في مادورا أعظم معجبيه في شخص فولتير نفسه، وقد أشار هذا الأخير إليه في التعليق المدرج على الترجمة التي خصّه بها كدليل على أنّ الفكر التعددي الديني كانت متسامحا وفلسفيا وإيمانيا، ويبدو أن مشروع الترجمة في الأساس كان متمّما لمخطوط سابق اهتم فيه هذه المسألة بالذات، موسوم ب "Traité Sur La Tolérance".

- Voltaire. *Traité sur la tolérance*. 1763.

et entretiens philosophiques الصادر سنة 1776م باللغة الفرنسية. يتضمن الكتاب أيضا ترجمة لرسائل المعلم ماكسيم وتلميذه أوغستين، وبالضبط الرسالتين 16 و17 التي تبادلا فيها الآراء الفكرية في مسائل الدين[4]، وهذا بالعودة إلى النص المدرج في فهرس الرسائل اللاهوتية الأوغستينية ضمن مشروع الأعمال الكاملة للقديس أوغستين ***Œuvres complètes de Saint Augustin: Augustin d'Hippone*** والتي أشرف على ترجمتها إلى اللغة الفرنسية ولأول مرة في التاريخ كل من M. Poujoulat و M. l'abbé Raulx بين سنوات 1864-1872. لنختم العمل من نفس الفهرس ضمن رسائل المجموعة الرابعة غير المحدد زمن إرسالها، بترجمة الرسالة 232 التي أرسلها أوغستين إلى سكان مدينة ماكسيم "مادورا"، والتي أدرجناها في سياق هذا العمل لتعزيز الطرح الذي نحاول تقديمه للقارئ.

وقد اعتمدت في هذا العمل منهجية الترجمة البينية الثقافية، آخذا بعين الاعتبار الفروقات الثقافية والسياقات الاجتماعية، إذ حاولت الحفاظ على توازنٍ يحفظ الأصل ويمكّن القارئ من التفاعل مع النص بأسلوب يتماشى مع ثقافته وفهمه، وحرصت كل الحرص على نقله بالشكل الذي يعكس معانيه الحقيقية ويراعي السياق الثقافي للغة العربية. أيضا، ومن أجل دعم الهوامش علميا، اعتمدت "نظام شيكاغو للاستشهادات (Chicago Style)" لمرونته مع هذا الطابع من الأعمال التي تتطلب النظر في النصوص الأصلية والسياقات الثقافية المرتبطة بها.

لا يخلص حوار "سوفرونيم وأديلوس" إلى تقديم أجوبة حاسمة لقضايا الوجود، بقدر ما يستثيرها بشكل فلسفي يبعث على طرح الأسئلة. نجد الذات تُسائل الذات، والنفس تبحث عن خلاصها، والروح تستقصي بارئها. وقد تفضّل البروفيسور شريف

---

[4] أنظر:

- Augustin d'Hippone. *Œuvres complètes de Saint Augustin*. Edited by Jean-Joseph-François Poujoulat and Jean-Baptiste Raulx. Bar-le-Duc, France: L. Guérin & Cie, 1864.

الدين بن دوبه بتوصيف هذا المبحث السقراطي الأبدي "اعرف نفسك"، والذي رصده في ثنايا الحوار وحرص على تنضيده بين إرهاصات السائل وحيرة المجيب وتطلعات القارئ، وباستثارة السؤال الرابع الكانطي "ما هو الإنسان" في الملمح الفلسفي الماكسيمي، والإشارة إلى المشروع القائم للكتاب من وجهة نظر حضارية استشرافية. نوفيه خالص الشكر وتعابير الامتنان على المجهود الراقي والمساهمة العلمية الجديرة بالإشادة والثناء، وبالإحاطة التي تؤكد على انخراط العقل الجزائري، قديما وحديثا، في مسائل الإنسان والخليقة والوجود.

يعرض الحوار نقاشا فلسفيا بين أديلوس، وهو رجل ثري ومثقف في سن السادسة والسبعين يعبّر عن مخاوفه من الموت. وسوفرونيم، وهو فيلسوف يعتنق مذهب الانتقائية يسعى لتهدئة مخاوفه[5].

تداول النص أفكارا حول الموت والحياة الآخرة وطبيعة الذات البشرية والكينونة الإلهية، إذ يعبرّ أديلوس عن هاجسه الأكبر في الحياة وهو الموت، بوصفه البلاء العظيم والهلاك الذي لا يبقي ولا يذر. كما يبدي اعتراضه الصريح على الفلسفات التي تعلو هنا وهناك، على أنها مجرد مواساة فارغة تستند على ترّهات لا تحجب الحقيقة المرّة، ولا تهوّن من فضاعتها. في حين نجد سوفرونيم يقدّم وجهة نظر فلسفية تبدي تماسكها بعض الشيء، محاولا تهدئة مخاوف أديلوس بالتأكيد على أنّ الموت قد يكون تتويجا لحياة فاضلة ما دام يخضع الإنسان لقوانين إلهية عادلة، وأنّ الواجب على المرء أن يتقبّل مصيره ويجعل الفضيلة سعيه الدؤوب في الحياة.

---

[5] نص سوفرونيم وأديلوس باللغة اللاتينية مفقود وغير منشور، لم يذكر فولتير مصدر الطبعة التي حصل عليها، لكن الترجمة الفرنسية للنص موجودة ويمكن الاطلاع عليها، وهذا العمل مبني عليها بالأساس.

- Voltaire. *Dialogues et entretiens philosophiques*. Imprimerie de la Société Littéraire-Typographique, 1785, 200–212.

وفيما يبدو الحوار ثريا بالاقتباس من معين الفلسفة اليونانية والرومانية بما نرصده من إشارات إلى الأسماء الكلاسيكية في العصر القديم وأقوالها المأثورة، نجد أنّ سوفرونيم يؤثثه بالكثير من الأفكار الفلسفية الجديرة بالذكر. فهو يؤكد على وجود ملكوت يبسط سلطانه على الخليقة، قيّض لها قوانين نافذة لا مفر منها، ومنه تستمد القدرة على الشعور والفكر. وليس الإنسان حالة استثناء وجودية، إلا بما اختصّه من جزاء على أعماله يستشعره في هذه الحياة قبل الآخرة.

ومع ذلك لم يوفّق سوفرونيم في طمأنة محاوره بشأن الموت الذي أوجس منه خيفة، وينتهي الحوار دون إقرار بين أديلوس وسوفرونيم حول مسألة الحياة الآخرة إن كانت توجد أم لا.

إذا ما قمنا بإسقاط المحتوى على البيئة العقائدية السائدة في عصر المؤلف، نجد أنفسنا أمام طرح ثوري يتحرر من المسلمات الروحية، خصوصا وأن مؤلف الحوار، ماكسيم المادوري، عاش في القرن 4م، وهو عصر سادت فيه الثقافة الرومانية شمال إفريقيا بكل حمولتها، وكان أصيل مادورا التي اعتبرت من قلاع الوثنية، ومن كبريات مدارس العالم اللاتيني في العصر القديم[6]. وهذا يعكس شكلا من الفلسفة العقلانية التي اتّسم بها العنصر المحلي في تعاطيه مع الهالة الميثولوجية محكمة البناء في سردية الموت وما بعده عند الرومان الذين كانوا يديرون المكان لأكثر من 4 قرون من زمنه[7]،

[6] في محضر ردّه على رسالة تلقاها أوغستين بالنيابة عن سكان مادورا، أكد رفضهم لاسم المسيح، بل واستهزأوا به هو الآخر، كما أشار لهم صراحة بعبدة الأوثان. للإثراء، تجدون ترجمة الرسالة كاملة في ملحق الكتاب.

- Augustinus. *Epistles*. 232.

[7] وفقا لأبولوجيا أبوليوس، فقد تأسست مادورا في عهد سيفاكس أي في القرن 3 ق.م، ثم انتقلت إلى سيادة الملك ماسينيسا، وبسقوط نوميديا في الاحتلال الروماني، أعاد المحاربون القدامى الرومان تأسيسها إلى مستعمرةٍ اسمها الكامل Colonia Flavia Augusta Veteranorum Madaurensium المستعمرة الفلافية الأغسطية المادورية لقدماء المحاربين، وفقا لنقيشة اكتشفها عالم الآثار الفرنسي Gsell سنة 1918 بالموقع الأثري. يظهر من اسمها أن شيدت من الأسرة الفلافية (69م-96م) وبالتالي، فإن حضور الرومان المدني والعسكري والثقافي بالمكان يعود للقرن الأول ميلادي. تدعى هذه المدينة اليوم بمداوروش، وهي تقع في ولاية سوق أهراس أقصى شرق الجزائر.

بالرغم من انعكاسها الصريح في الممارسات الجنائزية التي أثّثت الفضاء العام وتقاليد الناس في ذلك الزمن.

وإنّا نجد من الواجب أن نتطرّق للمسألة العقائدية ولا نقتصر فقط على الأدبيات والرؤى الفلسفية، حتى نقدّم فكرة ضمنية شاملة ووافية عن موضوع الموت وما بعد الموت عند القدامى، ويتسنى للقارئ معرفة وتفكيك محتوى النص الفلسفي والسياقات الثقافية المضمرة وسيكولوجيا الانسان، ليس فقط من متن النص، بل حتى من زاوية أنثروبولوجية تاريخية، وهكذا نبلغ بهذا العمل غايته الأسمى، وهي تبيان الإسهام الفكري والفلسفي لماكسيم المادوري في الحضارة الإنسانية. وهذا الذي دعانا لأن ندرج داخل النص التي يُنقل ولأول مرة إلى اللغة العربية دراسة ضمنية موجزة، نحاول من خلالها تزويد القارئ بالمعطيات اللازمة والأدوات الأساسية حتى يتسنى له، عبر العودة إلى بيئة النص الأصلية، فهم المعاني ومعاينة الحقائق التي تتخفى خلف قوالب التاريخ ولا تكشف عن نفسها ببساطة.

- IL. Alg. I. 2152.

- Apuleius, *Apologia*. 24.

سوفرونيم وأديلوس - ماكسيم المادوري

مادورا، القرن 4م.

نوميديا - الجزائر

أديلوس

سوفرونيم ...!

لم تفلح نصائحك الحكيمة في تبديد مخاوفي بعد. ولعلك ترى نفسك وأنت في السادسة والثمانين من العمر، أقرب إلى النهاية مني أنا صاحب الخامسة والسبعين. وفيما حشدت كل قواك لمواجهة الخطر الداهم، أصارحك بعجزي عن تأمل الموت بتلك النظرات اللامبالية التي يُقال إنّ كثيرا من الحكماء يرمقونه بها.

سوفرونيم

ولعلّ في الأمر مهابة قد لا يجدر بالحكيم عرضها بهذه اللامبالاة. إننا مجبرون على القبول، فكل ما هو مركب من أجزاء، ذي عقل أو ذي حسٍّ، نباتا أو حتى جمادا، قُدِّر له الفناء. وحريٌّ بنا أن نصبر على المحتوم ما دمنا تحت طائلة القانون الأعظم.

أديلوس

هذا الذي يؤلمني بالضبط. إذ وأنا أرى الفناء قدرا محتوما، يهزّني ألا أنظر بعين الرضا إلى ثروتي، صحتي، ثرائي، مقامي، خِلاني، زوجتي، أبنائي، بل ويشقّ عليّ أن أخلّف قريبا كل هذا ورائي وللأبد. وفيما نقّبتُ بشغف في كل الكتب بحثا عن التوضيح والعزاء، لم أجد غير الحبر على الورق.

وقد بلغ بي الفضول حدّ قراءة كتاب يُنسب إلى الكلدانيين، يسمّونه الكوهلث (الواعظ)، يخاطبني فيه المؤلف بالقول: "وهل في تعلّم شيء طائلٌ قد أرتجيهِ، إن كنتُ سأفنى كالجاهل والسفيهِ؟ ألا تلقى ذاكرة الحكيم والأحمق نفس العُقبان؟ أليس البشر والحيوان في الموت مثلان؟ أليس حالهما سيّان؟ ألا يتنفس كلاهما وبالمثل يفنان؟ أيفرق الحال بين الانسان والحيوان في شأن؟ أليس ذلك عيْن البطلان؟ أن يندفع الكل

إلى نفس القيعان؟ ألم نأت كلّنا من تراب وإليه نعود أتنان؟ وهل من أحدٍ يخبرني عن النفَس إن كان ينبعث في الهواء عند الانسان، وإن كان يتبدّد نزولا عند الحيوان؟".

نفس المعلّم، بعد أن أثقل كاهلي بهذه الصور المحبطة، يدعوني إلى التمتع بالحياة، إلى الحب والشهوات، وإلى الاستمتاع بما حقّقتُه، إلا أنه محبط مثلي حتى وهو يواسيني. هو يرى الموت إبادة مروعة: "كلب حي أفضل من أسد فان". ويقول: "قد يأسى الأحياء لعلمهم بأنهم سيموتون، إلا أنّ الموتى لا يعرفون ولا يشعرون ولا يدرون ولا يدلون، وذاكرتهم باتت طيّ النسيان الأبدي".

ما الذي يخلصُ إليه من هذه الأفكار الكئيبة؟ يقول: "اذهبوا إذا، تناولوا خبزكم بفرح، واشربوا نبيذكم بمرح". عن نفسي أعترف لكم، بعد سماعي لهذه الأقوال، صرتُ أغمُر خبزي بدموعي، وصار نبيذي مرا لا يطاق.

سوفرونيم

ماذا! ولأنّ كتابا شرقيا به مقاطع تخبرك أنّ الموتى لا يشعرون، تغوص وأنت حيّ ترزق في مشاعر مؤلمة؟ أراك الآن تحمّل نفسك ألما لن تقاسيه أبدا.

أديلوس

ستقول لي إنّ هناك تناقضا؛ أعي ذلك تماما، لكني أبقى مع ذلك متألما. فإذا قيل لي أننا سنحطم تمثالا حسن الصنعة، وسنسوّي إلى الأرض قصرا في منتهى الروعة، فهل تجيزون لي التحسّس من هذا الدمار، وتحولون دون شكواي من تدمير الإنسان، تحفة الخليقة؟

سوفرونيم

أود أن أذكّرك يا صديقي بما جاء في خطابات "توسكولاني" لشيشرون، حيث يثبت لك هذا الرجل العظيم وبمنتهى البلاغة أنّ الموت ليس شرًا.

أديلوس

هو يخبرني بذلك، ولكن ربما ببلاغة تطغى على الأدلة. سخِر من أساطير آخرون وسيربيروس، ولكن ربما استبدلها بأخرى. كان يستخدم هامش ملّته الأكاديمية التي تسنده فيما يدعمه وفيما يقف ضدّه: أحيانا أفلاطون الذي يؤمن بخلود الروح، وأحيانا ديكيارخوس الذي يعدّها فانية. فإن كان يواسيني بعض الشيء بتناغم كلماته، فإن استدلالاته تتركني في حيرة من أمري. تجده يقول، مثله مثل فلاسفة الطبيعة الذين أراهم غير ملمّين، أنّ الهواء والنار يصعدان رأسا إلى العلياء؛ وعلى هذا الأساس يتجلى بوضوح، على حدّ زعمه، أنّ الأرواح عندما تخرج من الأجساد تصعد إلى السماء، سواء كانت لحيوانات تتنفس الهواء أو مخلوقة من النار.

لا يبدو الأمر واضحًا بالمطلق! علاوة على ذلك، هل كان شيشرون يريد حقا أن تصعد روح كاتلينا وأرواح البغيضين الثلاثة (Triumvirs) رأسا إلى السماء؟

أقرّ لشيشرون أنّ ما لا يوجد لا ضير فيه، وأن العدم لا يُبهج ولا يغمّ. لست بحاجة إلى توسكولاني كي أستوعب أشياء بديهية وغير مجدية، ودون العودة إليه ندرك جميعا أنّ العوالم السفلى التي اخترعها أورفيوس أو هيرميس أو غيرهم ليست سوى أوهام سخيفة. كنت أمني نفسي وأنا في حضرة الخطيب الأعلى، وفيلسوف روما الأول، أن أقف على حقيقة إن كانت هناك أرواح، وما هي، ولِم تمّ خلقها، وماذا تصبح. ولكن، يا للأسف! أمام هذه المسائل الكبرى والأزلية والتي يستثيرها فضول الإنسان، لا يعرف شيشرون أكثر مما يعرفه آخر قسيس لإيزيس أو إلهة سوريا.

عزيزي سوفرونيم، أنا ألقي نفسي بين ذراعيك، خذ بيدي وأرشدني بموجزٍ عمّا أخبرتني به من أيام، عن هذه المسائل التي تبعث على الشك والتساؤل.

سوفرونيم

يا صديقي، لطالما اتّبعتُ منهج الانتقاء، آخذُ من كل مذهب ما بدا لي أكثر ترجيحا، وأحدّثُ نفسي بعفوية مطلقة، وبالمثل سأفعل معك ما دام فيّ بعض القوة لاستجمع أفكاري التي ستتلاشى قريبا.

1- لطالما أقررتُ للطبيعة، على غرار أفلاطون وشيشرون، بقوة سميّة، ذكيّة بقدر ما هي قوية، وهي التي رتّبت الكون كما نراه اليوم. لم أسر يوما على رأي ابيكوروس بأنّ الحظّ، وهو العدم ذاته، قد خلق كل شيء. ولما رأيتُ الطبيعة برمّتها تخضع لقوانين ثابتة، أقررتُ بوجود مشرّع؛ وبما أنّ جميع الأجرام السماوية تتحرك وفقًا لقواعد الرياضيات الأزلية، أقررتُ مع أفلاطون بوجود مهندس كوني.

2- ومن صنائعه نزولا، عدتُ إلى نفسي وقلتُ: من المستحيل أن يوجد في أيّ من العوالم اللانهائية التي تملأ الكون كائن واحد يفلتُ من النواميس الكونية؛ فالذي صوّر الكون بكلّ ما فيه لابد أن يكون قادرا على السيطرة عليه. ولذلك تخضعُ الأجرام السماوية، وبالمثل يحذو القمرُ والنباتُ والحيوانُ والإنسانُ حذوها.

3- أجهلُ سرّ التكوين، ولا أعرفُ سرّ النموّ، ولا أفهمُ غرائز الإنسان وأفكاره. كل هذه الخيوط رفيعة بحيث لا يلتقطها بصري الحاسر العيانيّ. وعليه أؤمن بأنها تخضع لقوانين الصانع الأزلي.

4- وهب للبشر التنظيم والشعور والذكاء، وللحيوان التنظيم والشعور وما ندعوه الغريزة، وللنبات التنظيم وحده. ولذلك تُمارَس قدرته باستمرار على هذه الممالك الثلاثة.

5- كل الجسيمات في هذه الممالك الثلاثة تفنى الواحدة تلو الأخرى، بعضها يدوم لقرون، وبعضها ليوم واحد، ونحن لا نعرف ما إذا قُدّر للشموس التي خلقها أن تهلك في النهاية مثلنا.

6- هنا ستسألني إذا كنتُ أعتقد أنّ أرواحنا ستفنى كما تفنى كل الكائنات الحية، أو أنها ستنتقل إلى أجساد أخرى، أو أنها ستُبعث في نفس الجسد يوما ما، أو أنها ستطير إلى عوالم موازية. أجيبك بأنه ليس لي في معرفة المستقبل من خلاقٍ، ولا في معرفة الروح نصيبٌ يذكرُ. أنا متأكد بأن القوة العليا التي تحكم الطبيعة وهبت ذاتي القدرة على الشعور والتفكير وشرح أفكاري. وعندما أُسأل عما إذا كانت هذه القدرات ستبقى بعد موتي، فإن الرغبة تعتريني لأسأل بدوري، هل يبقى غناء العندليب عندما يتم افتراس الطائر من قبل النسر.

لنتفق أولاً مع ذوي الرأي من الفلاسفة، أننا لا نملك شيئا بذات أنفسنا. فإنا إن أبصرنا شيئا أو سمعنا صخبا، فلا يوجد في هذه الأجسام أو فينا ما يمكنه أن يولد هذه الأحاسيس بشكل مباشر، وبالتالي، لا يوجد شيء، لا فينا ولا حولنا، يمكنه أن يولد أفكارنا مباشرة؛ *"إذ لا شيء في العقل ما لم يكن في الحسّ"* ***Nihil est in intellectu quod non rius fuerit in sensu***. الإله هو الذي يجعلنا نشعر ونفكر دائما، وهو الذي يتصرّف فينا دون توقف وبنحو قد لا يبدو مفهوما، وحالنا كحال الطبيعة بين يديه. لا يمكن لجرم سماوي أن يقول: "أنا أدور بقوتي المحضة". كما لا ينبغي للإنسان أن يقول: "أنا أشعر وأفكر بقدرتي الخاصة".

وما دمنا أدوات زائلة لقوة خالدة، فهل يعقل أن تستمر الأداة في أداء وظيفتها بعد فنائها؟ أليس هذا تناقضًا صارخًا؟ وإذا سلّمنا بوجود خالق سيادي، فهل يمكن أن نتصور مخلوقات تتحدى قدرته؟

أديلوس

لطالما أذهلتني هذه الفكرة العظيمة، فأنا لا أعرف نظاما أرقى في تعظيم الإله. لكن يبدو لي أنّ إجلال الإله في مطلق قدرته يعني تجريده من عدالته، وسلب الإنسان من حريّته. فإذا كان الأمر كله بيده، وهو الكل في الكل، فإنه لا يمكنه مكافأة أو معاقبة الأدوات المجردة لمراسيمه المطلقة؛ وإذا كان الإنسان لا يغدو كونه مجرد أداة، فهو لا يملك من أمره شيئا.

يمكنني أن أقول: في نظامك الذي يرفع من شأن الإله بقدر ما يحطّ من قدر الإنسان، ستنظر بعض العقول إلى الكيان الأبدي على أنه صانعٌ أنتج بالضرورة أعمالا هي عرضة للتدمير باللزوم، ولن يكون بنظر العديد من الفلاسفة سوى قوة غامضة نافذة في الطبيعة؛ قد نعود ربّما إلى مادية ستراتون ونحن نحاول تفاديها.

سوفرونيم

لطالما خشيتُ مثلكم من هذه التقديرات المخطرة، وهو الأمر الذي منعني من تعليم مبادئي بانفتاح في مدارسِي. لكنني على ثقة بأننا سنجد مخرجًا من هذا المأزق، ولا أقول هذا لمجرد المتعة في الجدال أو حتى لا أُهزم في الكلام، لستُ مثل ذلك الخطيب من طائفة مستحدثة، والذي يعترف في أحد كتاباته بأنه إذا كان يجيب على إشكالية ميتافيزيقية يصعبُ حلّها "ليس لديه شيء موثوق ليقوله، وإنما عليه أن يقول شيئًا ما".

أجرؤ على القول، في البدء، أنه لا ينبغي اتهام الإله بالظلم لأن جحيم المصريين وأورفيوس وهوميروس غير موجود. وأنّ رؤوس سيربيروس الثلاث، وربات الانتقام الثلاثة، وربات الأقدار الثلاثة، والشياطين الشريرة، وعجلة إكسيون، ونسر بروميثيوس، كلها أوهام سخيفة. أولئك المتنصّبون على القداسة، الذين نسجوا من الخيال أهوالا لترويع النفوس ولم يدعموا دينهم إلا بمعونة الجلادين، صاروا اليوم في نظر العقلاء أدنى مرتبة من البشر وأكثر ازدراءً من خرافاتهم.

هناك بالفعل عقاب في هذا العالم للأشرار لا ريب فيه ولا مفرّ منه. ما هو؟ إنه الندم الذي لا يُفارقهم، والقصاص الذي لا يني يطاردهم. لقد عرفت رجالًا أشرارًا بحقّ، بغيظين، ولم أر قطّ أحدهم سعيدا.

لن أسهب هنا في سرد معاناتهم وذكرياتهم المروّعة وذُعرهم الدائم، وانعدام الثقة الذي كان يتملّكهم في خدمهم ونسائهم وأبنائهم. لقد كان شيشرون محقا في قوله: "تلك هي سيربيروس بذاته، ربات الانتقام الحقيقية بسياطها ومشاعلها".

وما دام الجرم يعاقب بهذا الشكل فإن الفضيلة تُثمّنُ، ليس بحقول إليسيوم أين يصول الجسد ويجول عبثا حين لا تبقى له قائمة، بل والحياة تدبّ فيه، عبر شعوره بأداء الواجب وسكينة القلب والقبول بين الناس وصداقة الأخيار. هذا رأي شيشرون، وهو كذلك عند كاتون، ماركوس أوريليوس وإبيكتيتوس، وهو رأيي أيضا. وليس المقصود فيما يزعم هؤلاء الرجال أنّ الفضيلةَ تجعل الإنسان سعيدًا تمامًا، وشيشرون نفسه يقرّ بأن هذه السعادة لا تكون خالصة بالمطلق لأنّ لا شيء على الأرض كذلك، بل أن نثني على سيّد الطبيعة البشرية لأنه قرن الفضيلة بقدر من السعادة تستشعرهُ هذه الطبيعة.

أما بالنسبة لحرية الإنسان والتي تبدو الطبيعة القاهرة والنافذة للكيان الكوني كما لو كانت تقوّضها، فأنا أحصر نفسي في تأكيد واحد: "الحرية ليست سوى القدرة لفعل ما يريدهُ المرء". لكن هذه القدرة لا يمكن لها أن تناقض القوانين الأبدية التي رسّمها الكيان العظيم، بل تُمارَسُ بالامتثال لها. من يشدّ قوسا ويسحب إليه الوتر ويطلق السهم، فإنما يستجيب بذلك لقوانين الحركة الثابتة لا غير. بالمثل يسند الإله ويوجّه يد قيصر وهو يقضي بالعفو على المهزومين، ويُلزم من يلقى بنفسه في قاع النهر لينقذ غريقا ويعيده إلى الحياة بطاعة اللوائح والقواعد التي لا قِبل لأحد بمقاومتها، كما يمتثل لها، للأسف، شخص يذبح عابر سبيل وينهبهُ.

لا يوقف الإله حركة العالم بأسره ليحول دون موت إنسان معرّض للموت، حتى الإله نفسه، لا يمكن أن يكون إلها حرا على نحو مغاير، فإنما حريّته في القدرة على تنفيذ إرادته الأبدية. فلا يمكن لإرادته أن تفاضل بين الخير والشر دون مبالاة، لأنه يتجاوز مفهوم الخير والشر. فإن لم يُحقّق الخير بما يستجيب لضرورة فعلية وإرادة حقيقية، وقام بتحقيقه دون سببٍ وداعٍ، سيكون ذلك ضربا من العبث.

حتى إني أذهب بعيدا في الاعتقاد بأن الحال لا يفرق بين حقائق الرياضيات السرمدية وفيما يتعلق بالإنسان، لا يمكننا إنكارها بمجرد أن ندركها بكل وضوحها، وفي هذا بالذات خلقنا الإله على صورته، لا بعجننا بالطين المائي، كما فعل بروميثيوس على حدّ زعمهم.

من الطين الممزوج بمياه الأنهار، خلقها على صورة الآلهة التي تحكم كل شيء.[8]

[8] المقطع من قصيدة التحولات لأوفيد، يصف خلق باندورا من زيوس وهيفايستوس كعقاب للبشرية بعد أن سرق بروميثيوس النار من الآلهة وأعطاها للبشر. تم إعطاء باندورا صندوقا ولما قامت بفتحه، أطلقت كلّ الشرور على البشرية.

- Ovid. *Metamorphoses*. I. 82- 83.

قطعا، لا نشبه الإله الذي صوّرتهُ الحضارات القديمة بشكل ساخر بجميع أعضائنا وشهواتنا، لكن قاسمناه بالحب وبمعرفة الحقيقة نزرا من كينونته. بمثل ما للشرارة من قبس الشمس، وكقطرة الماء لها شيء من المحيط الواسع.

ولذا أحب الحق حين يطلعني الإله عليه، أحبه هو الذي هو مصدره، وألغي نفسي أمامه هو الذي جعلني أقرب ما أكون من العدم. لنمتثل مع بعض يا صديقي العزيز لنواميسه الكونية التي لا رجعة فيها، ولنناجي على مشارف الموت بمثل ما قال إبيكتيتوس:

"إلهي، أنا لم أعترض على تدبيرك أبدا. لقد كنتُ سقيما لأنك شئتَ ذلك، وكنتُ أنا بذلك رضيا؛ لقد كنتُ فقيرا لأنك شئت ذلك، وكنتُ أنا بفقري حفيّا؛ لقد كنتُ في ضعةٍ لأنك شئت ذلك، وما كنتُ أنا برفع رأسي رجيّا. تريدني أن أغادر هذا العرض المهيب، لك ذلك؛ بل لك ألف شكر فوق ذلك، لأنك تفضّلت عليّ بالقبول هناك لتريني كل أعمالك، وتعرض أمام ناظريّ النظام الذي تدير به هذا الكون".[9]

---

[9] أنظر:

- Epictetus. *diatribai*. III. VII.

تعليق

حوار سوفرونيم وأديلوس

في أيّ قراءة جادة ورصينة لهذا الصنف من النصوص، وباعتبار أنّ فكرة الموت وما بعد الموت والجزاء عند القدامى ترتبط أساسا بالقوى الإلهية المفترضة وإيمان الناس بها، فإنّ من الصواب في أيّ مقاربة نحاول التأسيس لها في العمل التمهيدي هذا، أو أيّ قراءة سواء كانت انطباعية أو فاحصة، أو أيّ دراسة لاحقة قد تتناول الكتاب بالتدقيق في زاوية من زواياه، ألا نسقط هوية ماكسيم المادوري الشمال إفريقية، وحضور البانثيون الأمازيغي في عقيدة القدامى، وتأليه الحكام والملوك النوميديين وعبادات الأسلاف، وكل ما أشار إليه في المجمل الجغرافي الروماني بومبونيوس ميلا بالقول الصريح: "***سكان سواحل إفريقيا، من أعمدة هرقل، تبنّوا في كل شيء عاداتنا وأساليبنا، باستثناء أنّ بعضهم حافظوا على لغتهم الأصلية، وكذلك آلهتهم وعبادات أسلافهم***"[10].

فضلا على ذلك أشار تارتوليان إلى عبادة الآلهة المحلية بالقول: "***لكل مقاطعة ومدينة إلهها الخاص*** ..."[11]، وهو الذي تؤكده الحفريات الأثرية التي وثّقت، على سبيل المثال لا الحصر، عبادة **مونا** في تيغنيقة (عين تونقة حالياً)، **ماتاموس** في ماسكولولا (هنشير قرقور حالياً)، **دراكو** في تيغنيقة وتبرسق، **هاوس** و**يوكولون** في محيط ناراغورا وتاغاست (سوق أهراس)، **ليلوس** في مادورا (مداوروش)، **إيرو** بالقرب من سيرتا (قسنطينة)، **ميداوروس** في لامبيز (باتنة)[12]. ناهيك عن عبادة الآلهة القرطاجية التي سادت شمال إفريقيا. وكل ما يترتب عن ذلك من قناعات وممارسات وشعائر تستثيرها هذه العبادات على اختلافها وتعدد مصادرها وترتبط بثقافة الحياة والموت والجزاء.

---

[10] أنظر:

- Pomponius Mela. *De Situ Orbis*. Book I, Chapter 6.

[11] أنظر:

- Tertullianus. *Apologeticum*. Chapter 24.

[12] أنظر:

- Leclercq, Dom Henri. *L'Afrique chrétienne*. Paris: 1904, 106–107.

أشير لهذا الأمر كوني آخذ في هذه الدراسة رومانية المكان من باب القياس. من جهة، لغياب أبحاث محلية محكّمة على غرار **Recherches Sur La Religion Des Berbères** للمستشرق الفرنسي "رينيه باسِّيه" **René Basset**، أو تنقيبات أثرية واسعة قد تفضي إلى بروز معطيات مغايرة لما وثّقه المستعمر الفرنسي وتؤسس لطرح بديل. من جهة أخرى، لكون المعطيات الأثرية والتي تعزى لإدارة المكان من الرومان، تشير إلى انغماس السكان المحليين والأهالي في تقديس البانثيون الروماني، وهو الأمر الذي يدعمه حضور الآلهة الرومانية بأسمائها في النقوش الأثرية المسجلة وتجلّيها في بعض المعالم التي لا تزال موجودة لحد الآن في مدينة ماكسيم (مادورا)، وأيضا لتوافق المصادر والمراجع العلمية التي سنستعرضها مع حقيقة الهيمنة الثقافية والعقائدية الرومانية على مستعمراتها.

هذا الأمر سيسمح بتقديم صورة ضمنية عن حضور الموت في حياة القدامى، كرعايا تحت النفوذ الإداري والثقافي والعقائدي الروماني لقرون، لكن يترك المجال مفتوحا للدارسين والباحثين في التراث المحلي الأمازيغي قصد إثراء الموضوع واستثارة المكون الهوياتي المحلي وهو الهدف الأسمى لهذا العمل برمّته. لأننا، وفضلا على شحّ المصادر التي تتحدث عن ديانة القدامى، فنحن لا نختص في هذا الكتاب بدراسة أكاديمية في العقائد القديمة، بل بتعليق يحاول فقط تقديم شروحات ومرافقة قارئه بما يمكّنه من فهم المحتوى وتقدير مدى الانزياح الفكري السليم والمؤسس فكريا وفلسفيا، والذي يبديه ماكسيم المادوري عن ممارسات زمنه، كواحد من مفكري عصره بنوميديا.

لم يعتقد الرومان في البدء بوجود عالم تنتقل إليه أرواح الموتى، وكانوا يظنونها بعد أن تنفصل عن الجسد تبقى بالقرب من مكان دفنها، وتقتات من قرابين الطعام والشراب لتظل سعيدة ومسالمة، وتغضب وتنتقم ممن لا يوفّونها حقّها وقدرها في مراسيم الدفن. لكن، بتأثر الرومان بالسرديات الاغريقية والإتروسكية بدأوا في اعتماد عقائد توحي بحياة ما بعد الموت، واعتمدوا "ديس باتر" الذي كان إله الثروة والغنى، إلها للعالم السفلي تحت اسم "بلوتون"، نظيرا للإله الاغريقي "هاديس"، رافضين اعتماد الإله "بلوتو" باعتباره شخصية ثانوية في المرويات الميثولوجية اليونانية. وكان "ديس باتر" خيارا مبرَّرا في نظرهم، لأن الغنى والثروة يأتيان من باطن الأرض، ويلزم أن يكون لإله العالم السفلي علاقة بذلك. أصبح بلوتون إله العالم السفلي، وتحوّل هاديس من اسمٍ لإله، إلى مسمى للعالم السفلي نفسه في الميثولوجيا الرومانية[13].

كان الإله الروماني "مورس" نظير "ثاناتوس" الاغريقي، والذي يتمثّل في الأدبيات القديمة كشخصية مظلمة تحمل منجلًا[14]، يجوب العالم ليجمع أرواح الموتى بعد دفنها ليأخذها إلى العالم السفلي. فإذا لم يُدفن جثمان الميّت، فإن روحه تبقى ضائعة ل 100 سنة على ضفاف نهر ستيكس قبل أن يحملها "خارون" على قاربه[15].

---

[13] اعتقد القدامى أن الطريقة الوحيدة للتواصل مع الإله Dis Pater كانت من خلال اللعنات، والتي كان يُنظر إليها بخشية وهلع. كانوا يقدمون له ذبائح من الحيوانات السوداء، ويحرصون بشدّة على عدم النظر أثناء القيام بالطقوس. أما المزارات الأكثر شيوعًا ل Dis أو Pluto فكانت تسمى "بلوتونيا" والتي قيل إنها بوابات الجحيم.

- Kinsey, Bryan. *Gods and Goddesses of Greece and Rome*. Malaysia: Marshall Cavendish Reference, 2012, 80–81.

[14] أنظر:

- Mayo, Robert. *A New System of Mythology in Two Volumes: Giving a Full Account of the Idolatry of the Pagan World*. Vol. 3. Princeton: Princeton University, 1812, 289.

[15] يبدأ الكتاب الرابع من الإنيادة في أعقاب تحسر إينياس على فقدان بالينوروس، ربان سفينته السابق. يصل إينياس والكاهنة (دليلة العالم السفلي) إلى كوماي ويستعدان للنزول إلى العالم السفلي، لكن الكاهنة تخبر إينياس أن خارون، ناقِل الموتى عند نهر أخيرون، سيمنعه من العبور لأن الأرواح غير المدفونة يجب أن تنتظر مائة عام لعبور النهر.

- Vergilius, *Aeneid*, Book VI, 295–332.

ومع ذلك، عكف الرومان على وضع قطعة نقدية في فم الميت عند دفنه كأجرة عبور النهر. ما أن تبلغ الروح الضفة الأخرى تجد كلب بلوتون ذو الرؤوس الثلاثة "سيربيروس" يحرس أبواب العالم السفلي حتى لا يغادره أحد، وتمثلُ للحساب أمام القضاة، مينوس، رادامنتوس، أياكوس[16]، لتنال جزاءها العادل. بعدها، وبحسب رغبتها، تشرب من نهر ليثي، أحد الأنهار الخمسة في العالم السفلي، إن أرادت نسيان حياتها السابقة بالكامل. ثم، وبحسب المصير الذي تقرّر في حقّها، إمّا تدخل الحقول الإيليزية لتلتحق بالأخيار والأباطرة الصالحين، وهو مكان بمثابة الجنة في اعتقادهم. أو تارتاروس، وهو الجحيم الذي يعاقب فيه الأشرار إلى الأبد. أما الأشخاص الذين عاشوا حياةً لا هي بالجيدة ولا هي بالسيئة، فإن أرواحهم تصول في حقول الأسفوديل، فضلا على الأرواح الهائمة التي تقرّر أن تعيش إلى الأبد على ضفاف الأنهار الثلاثة الأخرى، آخرون نهر الحزن، كوكتوس نهر العويل، ونهر فليجتون الملتهب[17].

ومع ذلك، آمن القدامى بإمكانية عودة الأرواح إلى عالم الأحياء، وذلك بإرضاء برسيفوني زوجة بلوتون، والتي بإمكانها رشوة الكلب ذو الرؤوس الثلاثة "سيربيروس" حارس العالم السفلي، وإرسال الأرواح عودة عبر نهر ستيكس.

---

[16] نجد أقدم ذكر لهؤلاء القضاة في أبولوجيا أفلاطون: "... ***إذا كان هذا هو حال الموت، فأنا أعتبره مكسبًا. لأنه في هذه الحالة، يبدو أن الوقت برمّته بالكاد يزيد عن ليلة واحدة. ولكن من ناحية أخرى، إذا كان الموت، كما يُقال، تغييرًا في المسكن من هنا إلى مكان آخر، وإذا كان ما يُخبرنا به صحيحًا أيها الحكام، بأن جميع الموتى موجودون هناك، فأيّ بركة أكبر من هذه؟ لأنه لو وصل الإنسان إلى العالم الآخر، بعد أن نترك وراءنا هؤلاء الذين يدّعون أنهم حكّام في الدنيا، سنلقى الحكّام الحقيقيين الذين يُقال إنهم يجلسون هناك للحكم، مينوس ورادامنتوس وأياكوس وتريبتوليموس، وجميع الأبطال الآخرين الذين كانوا رجال عدل في حياتهم. ألن يكون تغيير المكان إلى حيثُ هؤلاء الحكّام الحقيقيين مرغوبا فيه؟ أو مرة أخرى، تخيلوا مقابلة أورفيوس وموسايوس وهسيود وهوميروس! أنا مستعد للموت مرات عديدة، إذا كانت هذه الأشياء حقيقية؛ لأنني شخصياً أجد الحياة في ذلك العالم الآخر رائعة***".

- Plato. *Apologia*. 40e, 41a.

[17] أنظر:

- Parley, Peter. *Tales about the Mythology of Greece and Rome*. Dublin: Thomas Tegg; Glasgow: Tegg and Company; Sydney and Hobart Town: J. and S. A. Tegg, 1839, 171–178.

وهكذا، شغل الموت هاجس الشعوب القديمة عبر العصور، وقد عظّمه وخشيه القدامى وتعاملوا معه بكثير من الإجلال. إذ انعكست معتقداتهم حول الحياة الآخرة ليس فقط في كتابات الأولين من أمثال فيرجيل وهوراس وأوفيد وسينيكا وبيترونيوس، بل حتى في الممارسات الجنائزية وطرق تخليد ذكرى الراحلين وتلك الرهبة التي كانت تلفّها، فقد كانت الجنازة تعني الأموات والأحياء أيضا، وفرصة لعرض المكانة الاجتماعية لصاحبها وعائلته[18]، كما كانت النصب التذكارية مثل المقابر والشواهد الجنائزية شاهدا للأجيال القادمة، وبالتالي فقد كان الحرص على جماليتها وصورتها أحد الأولويات. ومع ذلك، فقد كان هذا التأثير ملموسا بنحو نسبي، بين من حرص على ترك مسافة وتجنب أيّ ارتباط بينه وبين الموت، وبين من أراد، بإحاطة نفسه بتماثيل الهياكل الجسدية ولوحات الفسيفساء التي تصور الجماجم، استذكار الفناء وأهمية انتهاز فرصة الحياة.

كانت فكرة الجزاء والمصير، والحياة في العالم السفلي بعد الموت، تشغل القدامى الذين تعاطوا معها بكثير من الجدية والخشية، وهي تظهر بشكل جلي في الأدب القديم، مثل رحلة إينياس في انيادة فيرجيل، ومروره بحقول الإليزيوم الشبيهة بالأحلام حيث تقطن أرواح الصالحين، وبتارتاروس القاتمة موطن الملعونين، وبضفاف نهر ستيكس أين ينتظر الموتى غير المدفونين بلا راحة، وأرواحهم في الأعلى تطارد الأحياء. فضلا على عبادة آلهة العالم السفلي، بلوتون وبرسيفوني وميركوري.

[18] كانت جميع الجنازات في العصور القديمة تُقام ليلاً، ولكن بعد ذلك، أصبح تقليدا خاصا بالفقراء لأنهم لم يستطيعوا تحمل تكاليف أيّ موكب جنائزي.

- Servius Honoratus, Maurus. *In Vergilii Carmina Comentarii*. Edited by Georgius Thilo and Hermannus Hagen. Leipzig: B. G. Teubner, 1881, XI.143.

يحضر الموت أيضا بيوت القدامى، في الصور والتماثيل المنزلية، ونجد في الارستقراطية بالأخص تقليد صنع أقنعة من وجوه أفراد الأسرة، الأحياء والأموات، وعرضها في غرفة الضيوف، وارتداء أقنعة أسلافهم في المواكب الجنائزية توقيرا لذكراهم[19]. كما شارك المجتمع القديم في إقامة احتفالات خاصة لتكريم الراحلين، إذ خصّ أرواح الأسلاف والأرواح الودودة Manes بمهرجان يدعى "بارينتاليا"[20]، يُقام سنويًا بين الثالث عشر والحادي والعشرين من شهر فيفري، وكان يُعتقد أنه إذا تجمعت أسرة المتوفى حول قبر ميّتهم وقدمت قرابين، فإن ذلك سيخفّف على روحه وتجعله يتذكر بعض التفاصيل من حياته، كما يشير أوفيد في ديوانه الشعري Fasti إلى كيفية تقديم هذه القرابين على الشواهد، ومغبّة انتهاك هذه الطقوس[21].

اختص القدامى الأرواح المضطربة Lemures بعيد خاص بهم في التاسع، والحادي عشر والثالث عشر من شهر ماي لاسترضائها يدعى "ليموريا"[22]. كما يقام في نفس الشهر احتفال آخر يدعى "روزاليا"، يتم فيه تزيين أماكن دفن الموتى بالورود والبنفسج لإحياء ذكراهم، وهو تقليد سارٍ إلى حدّ الساعة عند الغرب وحتى عندنا في التشريفات[23].

---

[19] أنظر:

- Polybius. *Historiae*. Book VI, 53.

[20] هناك احتفالين آخرين يرتبطان بالبارينتاليا ويحتفل بهما في شهرفيفري أيضا، الأول يدعى Feralia والثاني Caristia. أنظر:

- Gowing, Alain M. *Empire and Memory: The Representation of the Roman Republic in Imperial Culture*. Cambridge: Cambridge University Press, 2005, 14–15.

[21] أنظر:

- Ovid. *Fasti*. Book II, 533–570.

[22] أنظر:

- Ibid., V. 419- 492.

[23] أنظر:

- Hekster, Olivier, and Christian Witschel, eds. *Ritual Dynamics and Religious Change in the Roman Empire: Proceedings of the Eighth Workshop of the International Network Impact of Empire* (Heidelberg, July 5–7, 2007). Leiden: Brill, 2009, 21.

ومع ذلك، لم تكن هذه المراسيم تكفي لطمأنتهم، فقد كانوا يفصلون بينهم وبين أماكن دفن الأموات بحدود تدعى "بوموريوم"[24] لا يدفنون جثامينهم إلا وراءها، ويخلّون بينهم وبين أهالي الميت لفترة تصل إلى ثمانية أيام، تعزل فيها عائلة الميت نفسها عن المجتمع، وفي بعض الأحيان، يتم تعليق غصن من شجر السرو على باب بيتها. وقد اختلفت مراسيم الجنائز باختلاف العادات بين الحرق والدفن، إذ من جهة، كان رماد المتوفي يوضع في جرار داخل مقابر عائلية مزخرفة خاصة بالأرستقراطية، أو مبنى يخصص للعامة يدعى "الكولومباريوم" به العديد من المنافذ للرفات الجنائزية[25]. من جهة أخرى، وبالأخص في القرون الميلادية الأولى، ومع صعود المسيحية، انتشرت عادة الدفن، وأصبح الأهالي يوارون موتاهم الثرى في قبور مع بعض اللواحق مثل الفخار والمجوهرات.

على ذكرى الميت أن تبقى حية في الذاكرة، لأن خلوده في استمرار ذكراه في قلوب وعقول من تركهم وراءه، ولذلك، كانت الشواهد الأثرية لا تعبّر فقط عن بيانات المتوفي، بل كانت شكلا من أدب المرثيات، تستوقف المارة وتذكرهم بالموت، وتقيم علاقة وجدانية مع الأحياء. أحيانا تجد بعض الأسئلة التي تثير الفضول: " Quid properas? non te cursus vitae et mortis tenet" بمعنى "لماذا تمر مسرعا؟ ألم تستوقفك الحياة والمنيّة يوما؟". ومرة تجد بعض الأقوال المأثورة: " Nihil aeternum

[24] الكلمة تعني "ما وراء الجدار"، أنظر:

- Smith, William, and Charles Anthon. *A School Dictionary of Greek and Roman Antiquities: Abridged from the Larger Dictionary*. New York: The New York Public Library, 1864, 255.

[25] كانت قبور الأغنياء تبنى عادة من الرخام وكانت الأرض المحيطة بها تُحاط بسور حديدي أو جدار، وتُغرس حولها الأشجار، وكانت القبور الخاصة تُبنى إما من قبل فرد لنفسه وأفراد عائلته sepulcra familiaria، أو لنفسه وورثته sepulcra hereditaria. أما الكولومباريوم فهو نوع من القبور العامة، مزود بمنافذ لاستقبال الجرار الجنائزية، وسُميت بهذا الاسم بسبب تشابه المنافذ بفتحات بيوت الحمام (مأوى الحمام الزاجل).

- Smith, William. *A Dictionary of Greek and Roman Antiquities*. D.C.L., LL.D. London: John Murray, 1875, 561.

est" بمعنى "لا شيء يدوم إلى الأبد". وهكذا، ولأهمية هذه النصب الجنائزية، اهتم القدامى بالحفاظ عليها وعلى ديمومتها.

بالعودة إلى مسقط رأس ماكسيم، نجد أن الموقع الأثري "مادورا" بسوق أهراس لا يزال يحتفظ لحدّ الساعة بضريحين[26]، أحدهما يقع جنوبا وهو يعود إلى القرن الثاني ميلادي، بني بطابقين، وبداخله ثلاثة مشكوات خاصة بجرار رماد الموتى، ووفقا للنقيشة الأثرية المكتشفة بالقرب، فهو يخص عائلة ثرية تدعى "بومبي". والثاني، ضريح شمالي غربي به زخارف رائعة ورمز صليب واضح ونقش بالأعلى يشير إلى دفينة تدعى "فابريسيا فوستينيانا" من الفترة المسيحية[27].

تشير مصادر أخرى إلى فارس ثري من مادورا يدعى "ساتورنينوس" عاش في القرن الثالث ميلادي. التحق هذا المادوري بالجيش برتبة Beneficiarius وهي رتبة عسكرية كانت تُمنح للأفراد الذين تم تجنيدهم من العائلات الثرية، ثم ارتقى فيما بعد إلى قائد للمائة Centurion وخدم ببريطانيا لفترة طويلة. بعدها عاد إلى مسقط رأسه وأمر ببناء ضريح جنائزي له في حياته كلّفه 30 ألف سيسترس وهو مبلغ مهول، دُفن فيه وحده بعد وفاته في سن 85 سنة، لأن لا عائلة له أو وريث. وهذا الضريح لم تكشف عنه الحفريات الأثرية بمداوروش إلى حدّ الساعة[28].

---

[26] استُخدم اسم "ضريح (Mausoleum) "في الأصل للإشارة إلى القبر المذهل الذي أقامته أرتميسيا تخليدا لذكرى زوجها موسولوس Mausolus ملك كاريا، بعدها، ولفرط إعجاب الرومان به، أصبحوا يطلقون على أيّ قبر فخم لديهم اسم Mausolea.

- Pausanias. *Description of Greece*. Book VIII, 16.4.

[27] أنظر:

- إبراهيم بورحلي، مستعمرة مادوروس وإقليمها الترابي. رسالة دكتوراة في علم الآثار، جامعة الجزائر، 2009-2010. ص.ص. 96- 100.

[28] أنظر:

- Nelis-Clément, Jocelyne. *Les beneficiarii: Militaires et administrateurs au service de l'Empire* (1er s. a.C. - Ve s. p.C.), 57.

أمام كل ما سبق ذكره، تتجلى قيمة هذا النص (حوار سوفرونيم وأديلوس) الذي يعكس رؤية المثقف المحلي العقلانية لموضوع الموت والحياة الآخرة في العصور القديمة، بما يثيره من أسئلة فلسفية مهمة لا تزال متداولة حتى الساعة بين المدارس الفلسفية. فضلا على تقديمه نموذجًا للنقاش البنّاء النخبويّ في موضوع مثيرة للجدل، وفكرا فلسفيا مستحدثا في بيئة حياتية تطغى الخرافة عليها.

يستثير النص على الأقل خمسة أسئلة كبرى: هل يمكن إثبات وجود الإله من خلال العقل؟ ما هي طبيعة الروح وما يحدث لها بعد الموت؟ ما هي حدود الإرادة الحرة للإنسان؟ ما طبيعة العلاقة بين الإله والإنسان؟ ما هي معاني خلق الإنسان على صورة الإله؟

من ناحية الشكل، يُظهر المتن قدرة ماكسيم المادوري على التفكير العميق والنظر في الأسئلة الفلسفية المعقدة بطريقة منطقية وعقلانية، بحرية نسبية عن القوالب المذهبية الفلسفية. إذ نجده يتبنى وجهة نظر صريحة، ويستخدم حججًا عقلية ومنطقية لدعم أفكاره، ويستند على حقائق مطلقة مثل هندسة الكون التي شبّهها بعلم الرياضيات، ويستشهد بأقوال الفلاسفة مثل أفلاطون وايبيكوروس لدعم وجهة نظره. وفي خضمّ طرحه لهذه القضايا الكبرى، يبدي الكاتب وعيا يقظا بحدود معرفته.

من ناحية الطرح، يؤكد الكاتب على إيمانه بوجود خالق للكون، مستنداً إلى انتظام حركة الأجرام السماوية وخضوعها لقوانين ثابتة. وهو يرى أنّ جميع الكائنات في الكون، من كواكب ونجوم إلى نباتات وحيوانات وبشر، تخضع لقوانين إلهية محددة. يعترف بجهله لماهية الروح وما يحدث لها بعد الموت، لكنه يؤمن بقدرة الإله على منحها القدرة على الإحساس والتفكير. يرى أنّ الإنسان ببساطة ليس إلا أداة مجردة في يد الإله، بما يتوافق مع نيكولا مالبرانش في قوله: "***إن الإنسان لا يفعل وإنما الله يفعل بواسطة الإنسان؛ إن تريد رفع يدك أو أن تخطو خطوة، لست أنت الفاعل***

فالله هو الذي يحرك يدك وقدميك". أي أنه في طرحه يقيّد إرادة الإنسان ويخضعها للقوانين الإلهية القسرية، وينفي إمكانية وجود كائنات تقاوم الإله باعتباره خالقًا ذا سيادة مطلقة على كل شيء.

من ناحية المخرجات، يُعبّر أديلوس عن قلقه من أنّ نظامًا يُعلي من شأن الإله على حساب الإنسان قد يؤدي إلى تجريده من صفاته الإلهية، مثل العدالة والرحمة. يرى أن الإله، في ظل قدرته المطلقة، لا يمكنه مكافأة أو معاقبة البشر، لأنهم مجرد أدوات لتنفيذ مشيئته. كما يخشى أديلوس من أن يؤدي هذا النظام إلى رؤية الإله كقوة غامضة لا يمكن فهمها أو التعامل معها. يرد سوفرونيم على مخاوف الأخير من خلال شرح مفهومه للإله والعدالة. يرفض فكرة أنّ الإله ظالم، ويشير إلى أنّ عقاب الأشرار يكمن في الندم الذي يعيشونه في هذه الحياة. أما بالنسبة للثواب، فيرى أنّه يكمن في الشعور بالواجب وسكينة القلب وصداقة الأخيار. يعالج سوفرونيم أيضًا مسألة حرية الإنسان في ظل قدرة الإله المطلقة، ويرى أنّ حرية الإنسان تكمن في قدرته على فعل ما يريده، لكن هذه القدرة لا تعني التمرد على القوانين الأبدية التي وضعها الإله. كما يُشير سوفرونيم إلى أنّ الإله خلق الإنسان على صورته، لكنه لا يقصد بذلك الشكل الخارجي، بل القدرة على حب الحقيقة ومعرفة الخير والشر، ويدعو في النهاية إلى الامتثال لقوانين الإله الكونية، والقبول بقضاء الإله وقدره.

قد يفتح النص المجال إلى مقاربات عديدة قد لا يسع ذكرها جميعا، ومنها جزئية فلسفية أخصّها بالذكر هنا من باب التثمين، وهي فكرة "الوعي على أنه بث مستمر نابع من قدرة الإله التي تسري في خلقه".

يقول ماكسيم على لسان سوفرونيم: " ***أنا متأكد بأن القوة العليا التي تحكم الطبيعة وهبت ذاتي القدرة على الشعور والتفكير وشرح أفكاري***". أيضا: " ***وهب للبشر التنظيم والشعور والذكاء، وللحيوان التنظيم والشعور وما ندعوه الغريزة، وللنبات***

التنظيم وحده. ولذلك تُمارَس قدرته باستمرار على هذه الممالك الثلاثة". وكذلك: "***إن الإله هو الذي يجعلنا نشعر ونفكر دائما، وهو الذي يتصرّف فينا دون توقف وبنحو قد لا يبدو مفهوما، وحالنا كحال الطبيعة بين يديه. لا يمكن لجرم سماوي أن يقول: "أنا أدور بقوتي المحضة". كما لا ينبغي للإنسان أن يقول: "أنا أشعر وأفكر بقدرتي الخاصة***".

يبدو أن الوعي في طرح ماكسيم لا ينبثق عن الدماغ، بل خاصية أساسية للكون، وهذا المنظور يتحدى الرؤية التقليدية المركزية للإنسان، والتي تضع البشر في مركز الكون. الوعي عند ماكسيم يستمده الكائن الحي من "القوة العليا"، هو أشبه بتيار يتدفق فيه باستمرار كي يتلقى عبر الحواس كل موجود. وفي هذا الطرح، يبدو أن المكان والزمان ينشآن من الوعي بهما وليسا معالم وجودية بل إدراكية ضمن ما يحدده العقل. وطالما تتدفق هذه القدرة دون توقف في الوعاء الحي فإن الوعي بالوجود يبقى مستمرا. وهذه القدرة تفاضلية، منحت للإنسان ما لم تمنحه للنبات والحيوان، ومنحت للحيوان ما لم تمنحه للنبات، وجعلت التنظيم قاسما مشتركا بينهم، وهكذا جعلت للبشر السيادة على النبات والحيوان، وجعلت للحيوان الإمرة على النبات، وعلى هذا النحو رسّمت القدرة الإلهية التنظيم الأساسي للكون والقيمة المتأصلة للحياة والارتباط الوثيق بين جميع الكائنات الحية.

يتلخص الهاجس الأكبر في السؤال التالي: ماذا بعد الموت؟ هل الوعي الذي ينبثق عن القدرة الإلهية الأبدية يختفي باختفاء الأوعية الحية الشبيهة بأجهزة البثّ والاستقبال، أم أنه يستمر في شكل من الأشكال، وبالتالي يحافظ الكائن الحي على إدراكه بعد الموت؟

يقول ماكسيم: " ***وما دمنا أدوات زائلة لقوة خالدة، فهل يعقل أن تستمر الأداة في أداء وظيفتها بعد فنائها؟ أليس هذا تناقضًا صارخًا؟ وإذا سلّمنا بوجود خالق سيادي، فهل يمكن أن نتصور مخلوقات تتحدى قدرته؟*** ".

يبدو أن المادوري في وقت مبكر من تاريخ الإنسانية يصوغ الأساسات الفلسفية الأولى لما يعرف بنظرية مركزية الحياة أو ما يدعى البيوسونتريزم Biocentrism، وهي نظرية اقترحها العالم الأمريكي "روبرت لانزا" سنة 2007 تقترح أنّ الحياة هي المبدأ المركزي والمنظم للكون، وتشير إلى أن الوعي ليس نتاجًا للدماغ، بل خاصية أساسية للكون نفسه.

يستدل روبرت في دراسته لخصائص الوعي بآراء الفلاسفة والتي تشترك جميعها في تأكيد زعمٍ واحدٍ وهو أنّ المكان والزمان شكل من الإدراك الحسي. يقول[29]:

"***منذ أقدم العصور، اعترف الفلاسفة بأولوية الوعي، بأنّ جميع الحقائق ومبادئ الوجود يجب أن تبدأ بالعقل الذاتي والفردي. ومن هنا جاء مقولة ديكارت: 'أنا أفكر، إذن أنا موجود'. بالإضافة إلى ديكارت الذي أدخل الفلسفة إلى عصرها الحديث، كان هناك العديد من الفلاسفة الآخرين الذين جادلوا على هذا الخط: كانت، لايبنيز، الأسقف بيركلي، شوبنهاور، وهنري برغسون، على سبيل المثال لا الحصر***".

"***بدون إدراك، لا وجود للواقع ذاته. فكل ما نعرفه وندركه لا يكون موجودًا إلا بفعل الوعي الذي يشكله. وكيفية إدراكنا للأشياء تؤثر بدورها على ماهيتها. حتى الزمن نفسه ليس سوى نتاج لهذا الوعي المتغير. إنّ إحساسنا بمرور الزمن هو في الحقيقة***

---

[29] يرجى قراءة المقالة العلمية لروبرت لانزا والمنشورة على النت في المجلة العلمية المرموقة The American Scholar.
- Lanza, Robert. "A New Theory of the Universe: Biocentrism Builds on Quantum Physics by Putting Life into the Equation." *Scientific American*, March 1, 2007.

نتيجة لسلسلة لا نهائية من اللحظات الحاضرة، والتي تبدو لنا متصلة بسبب طبيعة وعينا. هذا ما يوضحه مفارقة السهم التي طرحها الفيلسوف زينون، حيث لا يمكن للجسم أن يكون في مكانين في نفس الوقت، مما يعني أن الحركة مجرد وهم ينشأ من طبيعة إدراكنا للزمن. وبالتالي، فإن الزمن ليس سوى انعكاس لوعينا وليس خاصية موضوعية للعالم".

"***يعتقد الفيزيائيون أن نظرية (كل شيء) على وشك الظهور، ومع ذلك لا يزال الوعي لغزًا كبيرًا، ولا يعرف الفيزيائيون كيف يفسرون وجوده من القوانين الفيزيائية. الأسئلة التي يتوق الفيزيائيون لطرحها حول الطبيعة مرتبطة بمشكلة الوعي، ولا يمكن للفيزياء أن تقدم إجابات لهم. فليتعلم الإنسان، كما أعلن إمرسون، وحي كل الطبيعة وكل الفكر إلى قلبه؛ وبالضبط: أنّ الأعلى يسكن معه؛ وأن مصادر الطبيعة في عقله الخاص***".

قد نختصر كل ما قيل فيما يلي: "بما أن الزمان والمكان ليسا سوى إسقاطات خلقها الوعي، فإن "الموت" الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالزمان والمكان، ليس هو الخاتمة. إذ طالما يعدّ الوعي أساس الواقع، فإن الكون نفسه يتكيف مع الوعي وليس العكس، وهذا يعني أن الوعي يمكن أن يستمر بوجوده بعد "الموت"، وقد ينتقل إلى أبعاد أخرى أو أزمنة أخرى، أو ربما يتخذ أشكالاً جديدة من الوجود".

يمكننا القول إنّ الجانب الفلسفي من نظرية "مركزية الحياة" يحمل ملامح فلسفة ماكسيم المادوري بل ويعدّ في بعض النواحي صياغة مستحدثة لها. وعلى الرغم من اعتمادها أسسا علمية معاصرة لتقديم تفسير علمي للوعي والكون، فهي لا تتخلص من ترسبات الحكمة القديمة في مكنونها.

وعلى سبيل الذكر لا الحصر، يشير الحوار أيضا إلى شذرة امبريقية هامة، إذ أدرج ماكسيم المادوري اقتباسا صريحا من معين التعاليم الأرسطية في قوله: "لا شيء في العقل ما لم يكن في الحسّ" ***Nihil est in intellectu quod non rius fuerit in sensu.*** وهذه العبارة نجدها عند الفيلسوف توما الاكويني (1225م-1274م) في المسائل المتنازع عليها حول الحقيقة: ***"علاوة على ذلك، لا يوجد في العقل شيء إلا وكان موجودًا أولًا في الحواس. ولكن لا يمكن افتراض وجود إدراك حسي عند الإله، لأنه إدراك مادي. وعليه، فإن الإله لا يدرك الأشياء المخلوقة، لأنها لا توجد أولًا في الحواس"***[30]. وهذا المبحث الفلسفي الذي يبدأ بالبيانات الحسية وينتهي بالاستدلال، يمتد تأصيله من أرسطو إلى جون لوك، ويضع ماكسيم المادوري في مركزه زمنيا وحضاريا.

كمثال أخير وعلى لسان أديلوس، يشير ماكسيم إلى مادية ستراتون اللميساكي (القرن 3 ق.م) التي تؤكد على أنّ الظواهر تحتكم إلى القوانين الطبيعية. وهذا مبحث فلسفي تمتد جذوره الفكرية من الحكيم تاليس، أناكسمندر وهيرقليطس، والتعاليم الأبيقورية، ديموقريطس وستراتون، توما الاكويني وديكارت وسبينوزا، ويبدو أن فيلسوفنا الكبير ماكسيم المادوري يستثيره أيضا في رؤيته النقدية الفلسفية.

---

[30] أنظر:

- Aquinas, Thomas. *Quaestiones Disputatae de Veritate*. Question 2, Prooemium, Article 3, Argument 19.

المتأمل في حوار ماكسيم، وفي الإشارات سالفة الذكر، يتبيّن الشمولية الفلسفية في حوار سوفرونيم وأديلوس، والانتقاء المتميز من مختلف المذاهب والمدارس والمناهج لبلورة رؤية متماسكة حول قضايا الوجود، بما يتوافق وصدق ماكسيم الذي أشار على لسان سوفرونيم إلى اتبعاه منهج الانتقاء في رؤاه بعيدا عن الأحكام القياسية. إنّ هذا التطابق بين شخص ماكسيم وشخوصه يقدّم صورة جليّة عن الهوية الفلسفية للمعلم النوميدي.

كل ما أشرنا إليه سلفا، وكل ما تقدمنا به من تأصيل تاريخي لهذه الشخصية الملهمة، نأمل من ورائها جذب انتباه الباحثين والأكاديميين والفلاسفة بالأخص إلى جدوى استنطاق هذا الحوار بصفة أعمق قصد إنهاء هذا المشروع الذي قُدّر لنا أن نبدأه ولا ننهيه، لأن الإحاطة العلمية الكاملة بشخصية سفسطائية من طينة أبوليوس وماكسيم وأوغستين وكابيلا ونونيوس وغيرهم من قدامى الفلاسفة النوميديين تستوجب معرفة عميقة بالكثير من العلوم، وعلى رأسها الفلسفة، التاريخ القديم، الأنثروبولوجيا، الثيولوجيا، الميثولوجيا، البلاغة، الآداب اللاتينية، الفيلولوجيا، الترجمة، الاتيمولوجيا وغيرها من علوم لها أدواتها النقدية الخاصة ومناهجها في التفكيك والتحليل والاستدلال والتأصيل.

ومن الفلسفة نتحول إلى اللاهوت، وهو المبحث العلمي الذي فتح شهيتنا لمعرفة أعمق بماكسيم المادوري كونه يظهر في رسائل الفيلسوف التاغستي الشهير "أوغستين"، والتي قمنا بترجمتها والتعليق عليها في الملحق الذي يلي حوار سوفرونيم وأديلوس حتى نلمّ في هذا الإصدار بكل الآثار الفكرية لهذا العالم النوميدي.

الرسالة 16

من ماكسيم المادوري إلى أوغستين التاغستي

مادورا، سنة 390م

نوميديا - الجزائر

كم أتوّق إلى تلقي رسائلك المرة تلو الأخرى، فقد تسللت حلاوة كلماتك إلى روحي مؤخرًا دون أن تخدش أواصر الصداقة التي تجمعني بك، ولذلك أصر على أن أبادلك مثل ذلك خشية أن يُفسَّر صمتي على أنه نفور منك. فإن تبيّنت من كلامي خرف شيخٍ عجوز، فأنا ألتمس منك أذنا رحبة متسامحة.

ليس علينا أن نصدّق حديث اليونان عن عرش الآلهة في جبل أوليمبس، ما دامت أعيننا ترى وتؤمن بوجود آلهة خيّرة تحفّ الساحة العامة في مدينتنا. لكن، ليس إلا الناقص عقلا والفارغ روحا من يكفر بوجود إلهٍ واحدٍ، لا بداية له ولا سلالة، أبٍ للكل في مطلق رفعته وعظيم شأنه. نحن نعبد تحت أسماء مختلفة كمالاته المنتشرة في العالم الذي هو صنيعه، لأن اسمه الحقيقي يخفى عنا جميعا دون استثناء، ولأن كافة الأديان تشترك في اسم الإله. وبما أننا في تنوّع صلواتنا نختصُّ على حدة كل طرف منهُ، فإن عبادتنا على ما يبدو تَسَعُهُ كلّهُ.

ومع ذلك، لا أخفيك أنّ هناك سقطات ليس في وسعي أن أغضّ الطرف عنها. وهل لي أن أفضّل ميجدون هذا على جوبيتر الذي يقذف الرعد؛ وسناي على جونو، على مينرفا، على فينوس وفيستا؛ وعميد الشهداء نامفامون (يا للعار!) على كل الآلهة الخالدة. وضمن هذه الشخصيات المُحدثة الدخيلة، لوكيتاس قائم الحظ هو الآخر، وآخرون لا يمكن عدّهم، يحملون أسماء بغيضة عند الآلهة وبين البشر، أوزع لهم ستار الموت المجيد أن يثقلوا أرصدتهم بالجرائم فوق ما ارتكبوه من جرائم كي يصيبوا نهايةً تليق بحياتهم! والحمقى - إن جاز التذكير - يزورون مقابرهم، متخلّين عن المعابد، ومتجاهلين أرواح أسلافهم، لتتحقق بذلك الآية النبوية للشاعر الساخط: "روما، وهي تدعو الإله في معابدها، تقسم بالظلال".[31]

[31] أنظر:

- Lucan. *Pharsalia*. Book VIII, 457–459.

أما أنا، فأرى في ذلك كله ما يشبه معركة أكتيوم، حيث تجرأت وحوش مصر على توجيه سهامها الضعيفة صوب آلهة الرومان.

لكنني أطلب منك، أيها الرجل الحكيم، أن تضع جانباً تلك البلاغة القوية التي تجعلك فوق الجميع، والمنطقية التي تتسلح بها على طريقة كريسيبوس، وتلك الجدلية التي لا تترك لأحدٍ شيئا من اليقين، لتخبرني من هو هذا الإله الذي تعلنون أنتم المسيحيون أنه إلهكم، والذي تقولون إنكم ترونه حاضرًا في أماكن خفية. نحن نعبد آلهتنا في وضح النهار، وعندما نوجه إليها صلواتنا، يمكن لآذان جميع البشر سماعها. نسترضيها بذبائح طيبة، ونستطيب تزكية الجميع لنا ونحن نُريهم ذلك.

عليّ أنا الشيخ الضعيف ألا أطيل هذه المناظرة أكثر، وأُقرّ طواعية بقول خطيب مانتوا:

"كلٌّ يتبع ما يُسعده"[32].

وبناءً على ما سبق، لا أشكّ أبدًا أيها الرجل الفريد الذي غادر ديني، أنّ هذه الرسالة إن وقعت في أيدي الغير، لالتهمتها النيران أو فُقدت بطريقة ما. ولكن، إن حدث ذلك فلن يضيع غير الورق ولن تضلّ كلماتنا، لأني سأحتفظ بأصلها دوما في أعماق نفسي، كما يفعل كل مؤمن حقًّا. لتحفظك الآلهة، تلك التي، إن اختلف جميعنا على الأرض في عبادتها وإجلالها بنفس الطريقة، توافق الكلّ في عبادة الأب الواحد للآلهة والبشر.

---

[32] أنظر:

- Virgil. *Eclogues*. 3.

من أوغستين التاغستي إلى ماكسيم المادوري

تاغست، سنة 390م

نوميديا - الجزائر

هل تُرانا نؤسسُ لطرحٍ جاد أم ننخرط في الهزل؟ إنّ رسالتك، لضعف القضية التي تدافع عنها أو حسّ الدعابة المعهود، تجعلني أشك فيما إذا كنت ترغب في الضحك أو تسعى للحقيقة بجدّ. لقد بدأتَ بمقارنة كلمة "أوليمبس" بالساحة العامة عندكم، ولستُ أدري لماذا، إلا إذا كان القصد تذكيري بأن جوبيتر نصّب معسكره على هذا الجبل عندما كان في حرب مع والده، كما يَرِدُ في القصة التي يدعوها ذووك أنفسهم بالمقدسة. ولتذكيري أيضًا بوجود تمثالين في ساحتكم العامة، أحدهما لمارس عارٍ والآخر لمارس مسلح، يُخمد جماحهما تمثال رجل يمدّ ثلاثة أصابع تجاه الطلعتين المشؤومتين. هل سأصدق أنك ذكّرتني بهذه الساحة وهذه الآلهة لغير نيّة السخرية؟

أما قولكم بأنّ هذه الآلهة تشبه أطراف إله واحد عظيم، فأحذركم، إذ أذنتم لي بذلك، من هذه النكات الكفرية. ألهذا الإله الواحد الذي أجمع عليه العلماء والجهلاء - كما قال القدماء - أطراف آلهة يمكن لطلعة رجل ميت أن تخمد ضراوتها أو، إن شئتم، قوتها؟ بوسعي أن أقول الكثير هنا، وأنتم ترون بأنفسكم كم يستثير هذا المقطع من رسالتكم ذلك، ولكني أكفّ لساني خشية أن أغرق في الخطابة وأبتعد عن الحقيقة.

أما تلك السخرية اللطيفة التي وجهتها لديننا من خلال أسماء بونية لرجال فارقوا الحياة، فهل عليّ أن أردّ عليها أم أتجاوز عنها؟ إن بدا لك هذا الهراء تافهًا كما هو حقًا، فلا وقت لديّ لأضحك معك عليه. أما إن اعتبرته جادًا، فكيف لك، مع انشغالك بغرابة الأسماء، أن تغفل وجود "أوكادير" بين كهنتك، و"عبادير" بين آلهتك؟ لقد كان الأمر في ذهنك وأنت تكتب لي، وأردتَ تذكيري به بروحك المرحة لتخفّف من عناء التفكير بما هو ساخر في معتقداتكم! وقد سوّغت لك نفسك التي نسيتها أن أغرت على الأسماء الأصيلة، وأنت رجل أفريقي تكتب إلى أفارقة، ونحن جميعًا في أفريقيا. فإذا بحثنا عن معنى هذه الأسماء، سنجد أن "نامفامون" تعني رجلًا ذا قدمٍ مباركة، أي رجلًا يحمل معه خيرًا عند مجيئه. هكذا نقول باللاتينية أن رجلًا دخل بقدمٍ مباركة

إن صَحِب قدومه حدثٌ سعيد. فإذا جحدت اللغة البونية فكأنّك جحدت ما قيل عن علماء كبار بأنّ الكتب البونية تفيض بالحكمة، وعليك أن تأسف لولادتك هنا في مهد هذه اللغة. فإذا لم يكن صوت الكلمة هو ما يزعجك، وإذا كنت تقرّ بأنني قد بيّنت معناها على الوجه الأكمل، فعليك أن تغضب على فيرجيل الذي دعا هرقل إلى القربان الذي قدّمه له إيفاندر بقوله:

"مُنّ علينا، وائتنا بقدمٍ ميمونة إلى مذابحك".[33]

هو يرجو أن يحلّ عليه هرقل بقدمٍ مباركة، مثل نامفامون الذي تعتقد أنّ ذِكره يمثل إهانة لنا. لكن إن كنتَ من محبي السخرية، فإنّ لديكَ ما يكفي من المادة الساخرة: إله الروث "ستيركوليوس"، وإلهة المجاري "كلواكين"، وإلهة الحبّ الصلعاء "فينوس"، وإلهة الخوف "تيمور"، وإلهة الشحوب "بالور"، وإلهة الحمى "فيبريس"، ومثلها كثير، كرّمها الرومان القدماء بمعابد وقرابين. فإن أنت لم تعظّم شأنها جميعًا، فإنك تُقصّر في حقّ آلهة روما، وسَتُعدّ غير ضليع في أسرار الرومان. ومع ذلك، فأنت تحتقر وتستهزئ بالأسماء البونية، كما لو كنت مُكرّسًا لمذابح الآلهة الرومانية.

ولكن ربما في قرارة أنفسكم تجدون هذه الآلهة كلها أكثر سخفا مما نراها نحن، وتجدون في قضاء حياتكم على هذا النحو ضربا من التسلية، ولذلك لم تتردد في الاستشهاد بفيرجيل والاتكاء على البيت الذي يقول فيه: *"كلٌّ يتبع ما يُسعده"*.

فإن كان مقام فيرجيل يرضيكم، كما أنبأتمونا، فسيعجبكم هذا أيضا:

---

[33] أنظر:

- Virgil. *Aeneid*. Book VII.

"ساتورن، أول الوافدين من أعالي الأولمب الأثيرية، فارًّا من بأس أسلحة جوبيتر، ومنفيا عن ممالكه التي سُلبت منه".[34]

قد آتي على ذكر مقاطع أخرى أوضح فيها فيرجيل أنّ آلهتكم لم تكن سوى بشرٍ، وقد قرأ تاريخا عريقا من مرجعية عتيقة، تاريخا معروفا حتى لشيشرون الذي قال في حواراته أكثر مما كنا نجرؤ على سؤاله، وكان يجتهد في إيصال الحقيقة إلى علم البشر بقدر ما كانت الظروف تسمح له.

تُفضلون دينكم على ديننا لأنكم تُكرّمون آلهتكم علنًا بينما نُقيم نحن شعائرنا سرًّا. لكن، أخبروني رجاء، لِمَ تتناسون عبادة "ليبر"[35] التي لا تُظهرونها إلا لقلةٍ من المتلقّنين؟ لقد أردتم، بتذكيركم لنا باحتفالاتكم التي تُقام في وضح النهار، أنْ تعيدوا إلى أذهاننا مشهد حكام وقادة المدينة وهم يسيرون كالمجانين في ساحاتكم العامة ويصرخون مثل الباخوسيّات. في مثل هذا الاحتفال، إذا كان إله ما يتلبّسكم، فما هو هذا الإله الذي يُفقدكم عقولكم؟ وإذا كانت هذه الهياج مُفتعلة، فما معنى هذه الاحتفالات العامة التي تُجيزُ مثل هذه الأباطيل؟ وإذا كنتم عرّافين، فلِم لا تتنبّأون بالأحداث المستقبلية؟ وإذا كنتم عاقلين، فلِم تسرقون من يمرّون في طريقكم؟

مع أنّ رسالتك ذكّرتني بكل هذا، وبأمور أخرى أتغاضى الآن عنها، لِم لا نسخر نحن من آلهتكم، بقدر ما نراكم، في نواياكم التي لمسناها ورسائلكم التي قرأناها، توفونها

---

[34] أنظر:

- Virgil. *Aeneid*. Book VIII.

[35] ليبر، أو ليبر باتر، إله الكروم والخمر. كان يتمثل في راكب لعربة يجرها نمران، يرافقه موكب من الكاهنات الباخوسيات وأنصاف الآلهة لهم قرون وارجل ماعز Satyrs ونساء يلبسن جلود الحيوانات، كانت عبادته غامضة وسرية وتقام في أماكن غامضة. عثر بالموقع الأثري بمادورا على 5 تماثيل لهذا الإله مصنوعة من الرخام، فضلا على العديد من النقوش الأثرية التي تتحدث عنه. يذكر أن أبوليوس المادوري كان يتعبّد هذا الإله بوقار. لمزيد من التفصيل، اطلع على رسالة الدكتوراة المذكورة سلفا لعالم الآثار إبراهيم بورحلي "مستعمرة مادوروس وإقليمها الترابي". ص.ص. 196- 197.

- Apuleius. *Apologia*. 55.

حقّها من ازدراء؟ وعليه، إذا أردتم منّا أن نناقش هذه المسائل بما يتناسب مع عمركم وحكمتكم وكما يترقّبه أصدقاؤنا الأعزاء، فابحثوا عن موضوعٍ يستحقّ النقاش. تحدّثوا عن آلهتكم بلغةٍ لا تُظهركم كمُتخاذلين عن نصرتها، ولا تُشير إلى ما يمكن قوله ضدّها بدلًا من الدفاع عنها.

لكن، ولكيلا تقعوا في جهالة أو في انتهاك المقدسات، اعلموا أنّ المسيحيين الكاثوليك، الذين أُسّست كنيسةٌ لهم في مدينتكم، لا يعبدون الموتى ولا أيّ شيءٍ صنعه الربّ وخلقَه، بل يعبدون الإله الواحدَ، خالقَ كلّ شيءٍ وبارئه. وسنفصّل في هذا أكثر، بعون هذا الإله الواحدِ الحقّ، حين ألمس منكم الجدية في ذلك.

تعليق

رسائل ماكسيم المادوري وأوغستين التاغستي

تتضمن هذه الرسائل تبادلًا للآراء بين ماكسيم المادوري وأوغستين التاغستي حول الطبيعة الإلهية أو فيما يدعى بالثيولوجيا.

باختصار، يؤمن ماكسيم المادوري بإله واحد يتجلى في صور متعددة، ويرى في الآلهة الرومانية على تعدّدها تجليا لهذا الإله الواحد، وفي حضورها بالساحة العامة في مدينته مادورا شبها بالأولمب المقدّس. ينتقد من جهة عبادة المسيحيين الخفية لإلههم، ويرى بدوره أنّ العبادة العلنية لآلهتهم تُعزّز الإيمان والتقوى، مشيرا إلى أنّ عبادة المسيحيين في أماكن مشبوهة تُثير الشكوك حول إيمانهم. يسخر أيضا من الأسماء البونية لأشخاص يجلّهم المسيحيون ويشير إلى غرابتها ودونيّة أصحابها مقارنة بالآلهة التي يعبدها، ويشير إلى أنّ المسيحيين يعبدون الموتى من بني البشر، ويُعبّر عن استغرابه من إيمانهم بإله واحد خالق كلّ شيء.

أوغستين من جهته يقف دفاعا عن المسيحية. ينتقد فكرة تعدد الآلهة التي تقوم عليها الوثنية القديمة، ويُجادل بأنّ وجود إله واحد لا يتطلب أطرافا أو صورا للموتى. يُشير إلى أنّه لا يمكن لصورة رجل ميت أن تخمد ضراوة إله عظيم، ويضرب المثل بتمثالي مارس في الساحة العامة بمادورا وتمثال مقابل لرجل يمدّ ثلاثة أصابع تجاههما. يؤكد بدوره على أنّ إله المسيحيين واحد، لا يتجزأ ولا يتجلى في صور متعددة، ويشير إلى أن تمظهرات عبادة الآلهة بسلوكيات متطرفة عنيفة غير مقبول، ويُجادل بأنّ عبادة المسيحيين سرًّا لا تفرق عن عبادة الوثنيين للإله ليبر، كما يؤكد على أنّ المسيحية غير ملزمة أخلاقيا ودينيا ببعض الممارسات المتطرفة لرعاياها، ويروّج للديانة التي ترعاها الكنيسة الكاثوليكية وتدعمها الوصاية المركزية.

وفي محضر ردّه على السخرية التي أبداها ماكسيم وهو يتناول بالسوء الأسماء البونية لأشخاص مسيحيين، يتطرّق أوغستين إلى معانيها اللفظية، ويشير إلى أنّها تعبّر عن صفات إيجابية مثل الخير والبركة، ويُقارنها بأسماء الآلهة الوثنية التي تُشير إلى

صفات سلبية مثل الخوف والشحوب والحمى. وهكذا يؤسس لطرح يفيد بأن أسماء الآلهة ليست ذات أهمية في حدّ ذاتها.

يختتم أوغستين طرحه بتقديم الفكر المسيحي، أنّ المسيحيين لا يعبدون الموتى، بل يعبدون الإله الواحد خالق كلّ شيء، ويُشير إلى أنّ تعاليم المسيحية تُقدّم الخلاص الروحي للإنسان.

تقدم الرسالتان لمحة ثاقبة عن التطورات الدينية المعقدة في أواخر الإمبراطورية الرومانية[36]. ويُظهر إيمان ماكسيم المادوري بإله واحد أعلى، مع عبادة "أطرافه" تحت أسماء مختلفة، كيف تم توجيه الوثنية عبر عدسة توحيدية قصد تفسير الممارسات الدينية المتعددة الآلهة على أنها تعبير عن عبادة إله واحد أعلى[37].

بالرغم من أن استخدام مصطلحات مثل "الوثنية" و "التوحيد" قد يكون إشكاليًا، حيث قد تحمل معاني مختلفة ودلالات متباينة، إلا أنه من المهم الاعتراف بتعقيد هذه المفاهيم وتنوع سياقاتها. لا ينبغي اعتبار التوحيد ظاهرة أحادية الاتجاه والمفهوم، بل يجب تضمينها في إطارها التاريخي والثقافي المحدد، دون إهمال الاعتبارات السياسية،

---

[36] أثار صدور كتاب Pagan Monotheism in Late Antiquity سنة 1999 من طرف بوليمنيا أثاناسيادي ومايكل فريده جدالا واسعا ونقاشا محموما حول طبيعة التوحيد الوثني، الأمر الذي دعى مجلس أبحاث الآداب والعلوم الإنسانية ببريطانيا Arts and Humanities Research Council (AHRC) إلى تمويل مشروع أكاديمي لمعالجة هذه القضية سنة 2004، تم عرض مخرجاته في مداخلتين علميتين تم إلقاؤهما في مؤتمر أقيم بجامعة إكستر في جويلية 2006 ناقش الأسئلة المفاهيمية واستخلص مجموعة أوسع من المصادر حول الخلفية الدينية والفكرية للوثنيين واليهود والمسيحيين التوحيديين، أنظر:

- Mitchell, Stephen, and Peter Van Nuffelen. "Monotheism in Late Antiquity: Between Christians and Pagans; One God: Pagan Monotheism in the Roman Empire (1st–4th Cent. A.D.)." Paper presented at the conference *Pagan Monotheism in the Roman Empire*, Exeter, United Kingdom, July 17–20, 2006.

[37] درس ساندويل خطباء الوثنية في القرن 4م، ثيمستيوس وليبانيوس، مؤكدا كيف أنّ المفاهيم الوثنية عن الإله كانت تتيح بعض المرونة لاستيعاب التوحيد المسيحي بدرجات متفاوتة، حسبما تقتضيه المناسبات الخطابية المختلفة، أنظر:

- Sandwell, I. "Pagan Conceptions of Monotheism in the Fourth Century: The Example of Libanius and Themistius." *Journal Name*, 101–126.

وأهمها على الإطلاق، التأثيرات الكبرى التي رافقت تحول الامبراطور قسطنطين الأكبر إلى المسيحية سنة 312م، إلى غاية إعلان الامبراطور ثيوديسيوس للمسيحية كدين رسمي للإمبراطورية في سنة 380م، ومدى تأثر الرعيّة ومجاراة نخبها لذلك.

بالتدقيق في رسالة ماكسيم، نجده يؤكد على إيمانه بإله واحد أعلى، كما يقرّ أيضًا بعبادة الآلهة المتعددة. وهذا التوفيق بين المعتقدين لم يكن غريبًا على الوثنيين المتعلمين في ذلك الوقت، والذين بتفاعلهم مع التأثيرات الفلسفية والانتشار المسيحي، أكدوا على إله واحد سامٍ دون إنكار الآلهة الأخرى.

قد يعكس النص محاولة ماكسيم المادوري إثارة جدل فلسفي حول مسألة التوحيد، الممكن حسب نظره خارج السردية المسيحية، بأن هذا المفهوم "التوحيد" ليس أحاديّ الصيغة والتعريف بحيث يمكن للمسيحيين الاستئثار بمدلوله المفاهيمي والديني، وهذا ينعكس في عدم حرصه على إثارة خصمه أوغستين، بقدر اشتغاله على تذليل الفجوة بين فكره الديني الخاص وفكر غريمه. وهذا يبدو جدّ مرجّح، خاصة في ضوء التأييد الإمبراطوري للمسيحية، والتي تنعكس في اللغة الفوقية الواثقة لأوغستين في محضر ردّه، وحدّة تركيزه على ضبط المصطلحات في رسالة ماكسيم، ووصفه لما يدعى بالتوحيد "الوثني" بالكفريات، وتذكيره بالمرجعية المركزية للسلطة في إشارته لكنيسة مسيحية كاثوليكية تم تأسيسها بمدينة ماكسيم "مادورا"[38].

---

[38] يشير عالم الآثار الفرنسي إلى وجود كنيستين بموقع مادورا الأثري، الكنيسة المدنية والكنيسة الغربية التي وجد بها نقش أثري يشير إلى أسقف مادورا Placentius والذي عاصر أوغستين. في حين كشف عالم الآثار الجزائري إبراهيم بورحلي عبر الحفريات التي أقامها بالموقع الأثري عما لا يقل عن 08 كنائس، لا يمكن تحديد إن كانت أحدها هي التي يقصدها أوغستين بالكنيسة الكاثوليكية في مادورا. اطلع على رسالة الدكتوراة المذكورة سلفا "مستعمرة مادوروس وإقليمها الترابي". ص.ص. 100- 105.

- Gsell, S. *Mdaourouch*, 115–125.

ومع ذلك، تؤكد المصادر التاريخية أنّ تاريخ الرسالتين يعود إلى نهاية القرن 4 ميلادي وبالتحديد إلى سنة 390م، وعلى ما يبدو فإن مادورا لا تزال راسخة في وثنيّتها، حتى إنها لا تزال كذلك بعد سنوات أخرى.

وهذا الطرح يؤكده مصدر علمي آخر، الرسالة 232 لأوغستين والتي تضمّنت ردّ الأخير على رسالة ساخرة تلقاها من سكان مادورا عبر شخص يدعى فلورنتين، يخاطبهم فيها بالقول: "***إنّ تعلّقَكم بعبادةِ الأصنامِ أمرٌ معلومٌ لديّ، وهو مصدرُ حزنٍ عميقٍ لي. فمنْ السهلِ إغلاقُ معابدِكم، لا إغلاقُ قلوبِكم على ما فيها منْ أوثانٍ. بلْ أقولُ: إنّ أصنامَكم تسكنُ قلوبَكم أكثرَ مما تسكنُ معابدَكم***".

يمكن القول أنّ هذه الرسالة تعود إلى ما بعد 5 سنوات من تاريخ المراسلات السابقة، أو بالتحديد ما بعد سنة 395م، كون أوغستين أشار إلى استهزاء المادوريين وهم يخاطبونه، وهو "أسقف" حسب قوله، بلفظ "الأب". ونحن نعلم أن فاليريوس أقنع أسقف قرطاجة في 395م بتعيين أوغستين أسقفًا مشاركًا معه[39]، وبعدها بقليل توفي فاليريوس، وأصبح أوغستين الأسقف الوحيد لهيبون[40]. وبالتالي فإن تاريخ الرسالة 232 يعود قطعا إلى ما بعد 395م. وهذا دليل كافٍ على وثنية مادورا بعد تاريخ الرسائل المتبادلة بين ماكسيم وأوغستين، ومقاومتها للمدّ المسيحي.

يبدو ماكسيم عيّنة مادورية نموذجية، إذ يقدّم للباحثين فرصة نادرة لدراسة هذا التيار الوثني التوحيدي Pagan Monotheism، لكن من المهم جدا فهم السياق الذي

---

[39] أنظر:

- Brown, Peter Robert Lamont. *Augustine of Hippo: A Biography*. Berkeley: University of California Press, 2000. p. 133.

[40] أنظر:

- Ibid., 138.

أفضى بمفكر وفيلسوف إلى نبذ المسيحية، وإلى مصدر الثقة التي تملّكته وهو يعتمد أسلوب السخرية أمام عالم عارف مثل أوغستين.

ضمن الشخصيات التي تناولها ماكسيم بالسخرية: ميجدون، سناي، عميد الشهداء نامفامون ولوكيتاس. وصف أسماءهم بالبغيضة عند الآلهة وبين البشر، وبأنهم مجرمون كرّموا شعبيا كشهداء من أتباع المسيحية، كما يشير أيضا إلى آخرين. أما أوغستين فقد دافع بدوره عن أصالة أسمائهم البونية المحلية، وبأن الكاثوليك الذين يملكون كنيسة في مادورا لا يعبدون الموتى.

لو أردنا تحديد الإطار الزمني للشهادة في المسيحية، سنجد أن المصادر اختلفت بين نامفامون المادوري "عميد الشهداء" حسب ماكسيم، وبين شهداء سكيليوم (القصرين حاليا بتونس) وهم 12 شخصا تم إعدامهم سنة 180م بسبب إيمانهم[41]. يؤكد باكستر في دراسته الهامة The martyrs of Madaura أنه إلى غاية نهاية القرن الثاني ميلادي، لم تكن بنوميديا جماعات مسيحية إلا في لامبزيس[42].

لا يوجد سبب يذكر للافتراض بأنه في وقت مبكر من عام 180م كان بمادورا أو ضواحيها مسيحيون بالقدر الذي يبرر ذكر ماكسيموس لشهداء آخرين "*لا يمكن عدّهم*". ومع ذلك، وبما أن مادورا "مداوروش" كانت مركزا للثقافة ومستعمرة أسسها قدامى الجنود، قد يفترض بها احتضان المسيحية في وقت مبكر بسبب تنقلات الجنود

---

[41] الشهداء السكيليتيون. أمر البروقنصل بيبليوس فيجيليوس ساتورنينوس بإعدامهم لرفضهم التخلي عن المسيحية، حدث ذلك في 17 جويلية 180م. أنظر:

- Tertullian. *Ad Scapulam*. 3; 4.
- Attwater, Donald. *Martyrs: From St. Stephen to John Tung*. 1st ed. Sheed & Ward, 1958. p. 19–20.

[42] بالإضافة إلى قرطاج، يشير باكستر في دراسته لموضوع شهداء مادورا، إلى أنه حوالي 200م كانت تتواجد جماعات مسيحية في 4 أقاليم لا غير، حدرومتوم، ثيسدروس، أوثينا، لامبيزيس. أنظر:

- Baxter, J. H. *The Martyrs of Madaura*. *The Journal of Theological Studies* 26 (October 1924): 26.

منها وإليها، لكن هذا لا نجده في المصادر اللاحقة التي لا تأتي على ذكر الأمر، ولا في تشبث المدينة بوثنيّتها إلى وقت متأخر من القرن الرابع ميلادي، ولا في العدد الكبير للكهنة الوثنيين والمعابد والآلهة التي وثّقتها البعثات العلمية من المكتشفات الأثرية بالموقع الأثري في مداوروش[43].

في هذا السياق يبدو أن هناك طرحا يفرض نفسه بقوة، إذ يبدو ماكسيم باللغة التي تحدث بها عن هؤلاء الأشخاص وعن جرائمهم المقيتة كما لو كان على معرفة شخصية بهم، أو أنه عايش الجرائم التي اقترفوها، ما يوحي بشكل أو بآخر أنهم عاشوا منتصف القرن الرابع ميلادي وليس القرن الثاني ميلادي، وبالتالي فإن لفظ "***عميد الشهداء***" لا يعبّر حقا عن مدلوله اللفظي بل يضمر في معناه سخرية مبطنة، وربما قد يكون نامفامون هذا هو الأدنى أخلاقيا ضمن الأسماء التي ذكرها، والتي خصّها البعض من أتباعه بالتكريم الشعبي. لكن أيّ أسماء، وأيّ تكريم شعبي بالضبط؟ هو يشير إلى أشخاص: " ***يحملون أسماء بغيضة عند الآلهة وبين البشر، أوزع لهم ستار الموت المجيد أن يثقلوا أرصدتهم بالجرائم فوق ما ارتكبوه من جرائم كي يصيبوا نهايةً تليق بحياتهم***!". كما يلمّح بصورة ما إلى شكل من تقديس الشهداء في المسيحية بقوله: " ***والحمقى - إن جاز التذكير - يزورون مقابرهم، متخلّين عن المعابد، ومتجاهلين أرواح أسلافهم***". وأوغستين في محضر رده يحصر فئتهم بالقول: " ***اعلموا أنّ المسيحيين الكاثوليك، الذين أُسّست كنيسةٌ لهم في مدينتكم، لا يعبدون الموتى ولا أيّ شيءٍ صنعه الربّ وخلَقَه"***.

يبدو أنّ المقصود بالعبادة هم قطعا مسيحيون، لكن ليسوا كاثوليك، بل دوناتيون ينطبق توصيفهم في التاريخ على طائفة دينية يدعى أتباعها "سيركونسيليون"، وهذه

---

[43] بعكس باكستر، دافع Dom Henry Leclercq في مؤلفه "إفريقيا اللاتينية" عن مسيحية مادورا في وقت مبكر، وأضافها هي وتيبازة (موريتانيا القيصرية) إلى القائمة المذكورة. هذا الموقف يشاركه إياه الكثير من الباحثين والأكاديميين.
- Leclercq, Dom H. *L'Afrique Latine*. Paris: Librairie Victor Lecoffre, 1904. p. 88.

الأسماء الأربعة تنتمي إلى هذه الحركة الدينية المتطرفة التي كانت معادية لكل من المسيحية الكاثوليكية والوثنية.

أول مؤلف ذكر هذه الحركة هو أوبتاتوس الميلافي، وهو عالم لاهوتي وأسقف نوميدي عاصر ماكسيم، إذ تحدث عن أعمال كل من أكسيدو وفاسير ضد ملاك الأراضي وهم قادة الحركة السيركونسيلية[44]، كانوا يُلقّبون ب Duces Sanctorum وكان أعضاء الحركة يدعون أنفسهم Agonistici[45].

تحدث أوغستين عن النزعة الانتحارية التي كانت تميّزهم، وعن إقدامهم وهم يصرخون Laudes Deo "المجد للرب" ودون سلاح[46]، على مهاجمة الفعاليات الوثنية للشباب وهم في غمرة جموحهم، أو الإغارة على القوافل المسلحة، أو محاولة تحطيم التماثيل العامة للآلهة قصد التسبّب في مقتلهم ونيل الشهادة[47].

هذا التيار الذي ظهر في بدايات القرن الرابع ميلادي أزعج الامبراطور قسطنطين الأول الذي راسل الحبر الأعظم لإفريقيا دوميتيوس سيلسوس في سنة 315م مهددا من يتسببون في العنف ويسعون للاستشهاد طوعا بالقول: "***طالما لا يجوز لأيّ فردٍ،***

---

[44] أنظر:

- Vassall-Phillips, O. R., trans. *The Work of St. Optatus: Against the Donatists*. London and New York: Longmans, Green, 1917. p. 143–144.

[45] أطلق هؤلاء على أنفسهم لفظ Agonistici بمعنى "الذين يخوضون معارك الرب"، أما الكاثوليك فقد دعوهم Circumcellionsأي "الطوافون على الأكواخ":

- Hoover, Jesse A. *The Donatist Church in an Apocalyptic Age*. Oxford: Oxford University Press, 2018. p. 228–230.

- Giraud. *Bibliothèque Sacrée*, Tome I. p. 226.

[46] في رسالته إلى ماكروبيوس، يقول أوغستين: "*كان قادتهم يرافقونك مع قواتهم عند دخولك هذه البلاد، مرددين ترانيم تمجّد الرب؛ ويستخدمون هذه الترانيم المقدسة كبوق معركة في كل عملياتهم الإجرامية*".

- Augustine. *Epistles*. 108.

[47] أنظر:

- Augustine. *Contra Cresconium*. I. 28.

وبما لا يدع أيّ مجال للشك، أن يسعى وراء فضيلة الشهادة بطريقةٍ تُخالف بشكلٍ صريحٍ حقيقة الدين بما لا يليق أخلاقيا ودينيا، فسأُنزل العقوبات المُستحقة على أولئك الذين أُثبتت إدانتهم، وبلا أيّ ترددٍ، نظير جنونهم وإصرارهم المُتهوّر"[48]. هذا دفعهم للتحول من مهاجمة الوثنية إلى معارضة الامبراطور المسيحي نفسه. وفي سنة 317م، وجدوا في احتلال بعض الكنائس وقتلهم من وحدات الجيش الروماني ذريعة مثلى للشهادة، ما دفع الامبراطور للعفو عنهم سنة 321م حتى يتجنب سفك دمائهم[49]. هذا الأمر أزعجهم، فقد كان من المفترض أن تسرع وتيرة الاستشهاد من عودة المسيح عيسى عليه السلام كما أكدّ الأسقف الدوناتي لثاموقادي بيتيليانوس، ولذلك نجدهم قد دعوا أنفسهم Milites Christi أي جنود المسيح. وقد قلّل الوثنيون من وضوح مراسيمهم واحتفالاتهم في المناطق التي ينتشر بها "الأغونيستيكي" بكثرة، كما أنّ الأساقفة الدوناتيين كافحوا هجماتهم بفعالية، ما جعلهم ينشدون الشهادة عبر الغرق، أو بالانتحار الجماعي من أعالي المرتفعات[50].

بعدها اتّسمت الحركة بالتزام الزهد تحت تأثير كهنة وأساقفة دوناتيين مثل ماكروبيوس أسقف روما الدوناتي الذي أثر في عقيدة الحركة بمخطوطه "***إلى المعترفين والعذارى*** "***Ad confessores et virgines*** وهو رسالة عن فضائل العفة والشهادة، ولو أنّ الأثر لم يكن بنفس القدر على كل أفرادها.

---

[48] يمكن قراءة رسالةقسطنطين الأول إلى الحبر الأعظم لإفريقيا دوميتيوس سيلسوس كاملة في مؤلف أوبتاتوس الميلافي:
- Vassall-Phillips, O. R., trans. *The Work of St. Optatus: Against the Donatists*. London and New York: Longmans, Green, 1917. p. 404–406.

[49] يمكن قراءة رسالة قسطنطين الأول إلى أساقفة إفريقيا في مؤلف أوبتاتوس الميلافي:
- Ibid., p.p. 408- 409.

[50] في دراسته معمقة لهذه الظاهرة، أشار العالم الفرنسي والمختص في تاريخ شمال إفريقيا القديمة كلود لوبلاي إلى مختلف المظاهر والدوافع التي تملّكت طائفتي السيركونسيليون واليوفيس للشهادة، أنظر:
- Lepelley, Claude. "Iuvenes et Circoncellions: Les Derniers Sacrifices Humains de l'Afrique Antique." *Antiquités Africaines* 15 (1980): 261–271.

وقد تحدث عنهم تيكونيوس الدوناتي قائلا: "... ***وهؤلاء لا يعيشون مع الإخوة الآخرين على قدم المساواة، بل يدمّرون أنفسهم بحبٍّ مزعوم للشهادة، لأنّهم يأملون في نيل لقب الشهيد بمغادرة الحياة بطريقة عنيفة. هؤلاء الرجال، الذين نسمّيهم في اللغة اللاتينية "السيركونسيليون" كونهم فلاحون، يُشار إليهم بالمصطلح اليوناني "كوتوبيتاي". يتجوّلون في الأقاليم لأنّهم لا يقبلون الإقامة في نفس المكان مع الإخوة باتّباع خطّة واحدة ومشاركة حياة جامعة، مثل أولئك الذين يعيشون قلبًا وروحًا متّفقين وفقًا للعادات الرسولية. بل يتجوّلون، كما قلنا، في أماكن مختلفة وينظرون إلى قبور القدّيسين، كما لو كانوا يبحثون عن خلاص نفوسهم***"[51].

يبدو أن الطائفة المدرجة في رسالة ماكسيم المادوري تكشف عن نفسها بنفسها، كما يظهر أنّ اختيار ماكسيم المادوري لرجالاتها و(شهدائها) قصد الاستهزاء بأوغستين حشرا في الزاوية الضيقة باعتبار أن المسيحية مسؤولة أخلاقيا عن رعاياها وأتباعها.

يضيف ماكسيم المادوري في التلميح إليهم: " ***أما أنا، فأرى في ذلك كله ما يشبه معركة أكتيوم، حيث تجرأت وحوش مصر على توجيه سهامها الضعيفة صوب آلهة الرومان***". هو يشير هنا إلى طبيعة الأسلحة المستخدمة من قبلهم، إذ أنّ السيركونسيليين تسببوا بفوضى عارمة في نوميديا مسّت كل الأساسات الاجتماعية والدينية والاقتصادية والعسكرية، ومنحوا أنفسهم سلطة قضائية أخضعوا بها الأشخاص الذين اعتبروهم مذنبين بالقسر والإكراه، إلا أنهم، من كل الأسلحة، لم يستخدموا للعقاب إلا العصا، وفقط، إن لم يمتثل الشخص المعني للأوامر.

---

[51] أنظر:

- Tychonius. *Commentary on the Apocalypse*. Apud Beat. in *Apocalypse*, 26.3.

وإلى غاية عام 390م، أي في زمن الرسالتين، اتبع السيركونسيليون الوصايا الكتابية التي تحظر حمل السيف لتجنب قتل الأشخاص الذين كانوا يقومون بتقويمهم[52]، إذ كانت العصا تُعتبر من عدّة الراهب، وترمز إلى الدور الرعوي للأسقف.

لا يمكن لأوغستين إنكار الأمر، يبدو أن ماكسيم يتحدث عمّا عاصره من أحداث، وهو يقول: "***عليّ أنا الشيخ الضعيف ألا أطيل هذه المناظرة أكثر***...". يفترض من كلامه عن الشيخوخة أنه قد تجاوز السبعين من العمر على الأقل، أي أنه ابن عشرينيات القرن الرابع، وبالتالي عايش الفوضى والجرائم المرتكبة من "الأغونيستيكي" عن كثب. لكن يبدو أن أوغستين في تعاطيه مع هذه المسلمات الدامغة، وبعد تنكّره لهذه الطائفة وإنكاره عبادة الموتى، ورغم استباق حركته من ماكسيم وهو سيد اللغة العارف بتقنياتها، وجد نفسه مضطرا للمراوغة والتجاوب مع الطرح الذي يتعلق بمعنى الأسماء، دون التطرق إلى المسميات، مستغلا تباين المعنى بين الأسماء البونية والرومانية فيما يتعلق بالأشخاص والآلهة. طبعا لا يقصد ماكسيم الأسماء في تهجمه عليها بل الرموز في حد ذاتها. ومع ذلك، يستغل أوغستين الفرصة كي يغير على الآلهة الوثنية.

وقد استهان في البداية بالخلفية اللاأخلاقية لآلهة الأولمب، ضاربا المثل بحرب جوبيتر مع والده. ثم عجزها الصريح أمام البشر، في صورة البشري الميّت الذي يخمد الإلهين "مارس" بتجلّيه في تمثال حجري، قبل أن يتحوّل مباشرة إلى معاني الأسماء.

---

[52] يشير أوغستين إلى أن هذه الممارسات مستمدة من الإنجيل، تحديدًا متى 26:52، إذ يقول يسوع لفطرس بعد أن قطع أذن عبد رئيس الكهنة: "أغمد سيفك، كل من يحمل السيف، يموت بالسيف."

- Matthew 26:52.

- Augustine. *Contra Partem Donati*. 157.

وبما أنّ السيركونسيليين لا يتحدثون بغير البونية، وجلّ أتباعهم يحملون أسماء بونية، ووعاؤهم البشري من الأماكن التي تتحدث بالبونية[53]، فقد انتهز أوغستين الفرصة كي يشير إلى أصالة اللغة ومعانيها في أسماء الاشخاص، وجذورها في الذاكرة الشعبية، ورصيدها المعرفي الثري من الكتابات التي لا يعدّ الجهل بها أو إنكارها على حدّ تعبيره إلا شكلا من التفسّخ. ثم قارنها بقائمة مختارة من الآلهة الرومانية بأسماء سخيفة يعظمها الوثنيون، ويستدل بفيرجيل الذي كانت كتاباته مرجعا للناطقين باللاتينية، ليحطّ من شأنها ويشبهها بالبشر. بل شبّه كذلك عبادة المسيحية في السر بعبادة "ليبر باتر" التي تمارس من قبل الوثنيين في السر أيضا، وأنّ ما يمارسونه في العلن لا يغدو كونه شكلا من الهبل والابتذال والجنون. ويشير في محضر دفاعه عن أصالة الأسماء البونية لكاهن مادوري يدعى أوكادير، وإلى انغماس ماكسيم وسكان مادورا الوثنيين في عبادة الإله عبادير. وهنا نجد الدراسات تتباين حول هذا الإله وعبادته في شمال إفريقيا.

تتحدث الخرافات اليهودية عن حجر كاديروس "Caddires" المقدس والذي دهنه النبي يعقوب بالزيت بعدما توسّده ليلة نزول الوحي عليه، وتشير إلى أنّ عبادير بالفينيقية هي نفسها "Aban-dir" أي الحجر الكروي، وأنّ هذه العبادة وجدت طريقها إلى البونيين تحت اسم Abbadires يدعى كهنتها "يوكاديروس"[54].

---

[53] في عام 405م، لجأ الأسقف الدوناتي ماكروبيوس من هيبون إلى الريف وسط مجموعات من السيركونسيليون، ثمّ سعى في عام 408 إلى إعادة فتح البازيليكات الدوناتية بمساعدة السيركونسيليون. ودخل هيبون منتصرًا في عام 409، مُحاطًا بهم. ومع ذلك، يذكر القديس أوغسطين رفض السيركونسيليون، الذين يتحدثون البونية فقط، الخضوع لسلطة هذا الأسقف المثقف الذي واجه صعوبات في فهمهم: "***لقد وجهت إليهم كلمات قوية ومؤثرة باللغة البونية وبعون مترجم، وبروح من النبل والكرم***".

- Ibid., Epistles. 108.

[54] أنظر:

- A Universal History, The Ancient Part. Vol. 17: Compiled from Original Authors. London: T. Osborne, 1748. p. 287.

في الميثولوجيا المصرية، يبدو الأمر أكثر إثارة وهو يشير إلى حجر دائري مقدس يرمز لأفعى مقدسة. إذ يروي ديودورس الصقلي أنّ ملوك مصر كانوا يرتدون تيجانا عالية تنتهي بكرة مستديرة، والكل مزخرف برسوم لثلاثة أفاعي يدعونها باسم ثرموثة Thermuthis[55]. وهذا يعكس تأثر المصريين باعتقاد القدامى أن ساتورن الذي اعتاد على التهام أبنائه، خدعته زوجته أوبس Ops "الإلهة الأفعى" باستبدال واحد من أبنائه بحجر كبير يدعونه Abadir وهو نفسه إله الحية Ob-Adur "حورس".

وفقًا لبوسانياس، وُجِد في دلفي واحد من هذه الأحجار التي يُفترض أن ساتورن ابتلعها بدلاً من طفل، وكان يُقدس بشدة ويُسكب عليه الخمر يوميًا، وكان يُكرم بطرق أخرى في الأعياد. وقد ترسخت عادة تقديم الأطفال على مذبح ساتورن لفترة طويلة، ولكن بمرور الوقت قاموا بإلغائها، وفي مكانها أقاموا "صنمًا" أو حجرًا. كانوا يقسمون أمامه ويقدمون تضحيات من نوع آخر. هذا الحجر الذي استبدلوه، أطلقوا عليه اسم Ab-Adar نسبة إلى الإله الذي يمثله"[56].

---

[55] يقول المؤرخ الروماني كلوديوس أيليانوس في كتابه الشهير عن الحيوانات: "*ويقولون عن الأفعى التي أطلق عليها المصريون اسم ثرموثة أنها مقدسة، يعبدها أهل البلاد ويربطونها حول تماثيل إيزيس، وكأنها غطاء ملكي للرأس. وينكرون أنها ولدت لتدمير أو إيذاء الإنسان، ولكن عندما يزعمون أنها لا تلمس الفضلاء بل تقتل الأشرار فإنهم يبالغون في الأمر. ومع ذلك، إذا كان الأمر كذلك، فإن العدالة ستقدر هذا الأفعى فوق كل شيء، لانتقامه نيابة عنها ولبصره الثاقب. ويضيف آخرون أن إيزيس ترسله ضد أسوأ المخالفين. ويزعم المصريون أن ثرموثة هو الوحيد الخالد بين الأفاعي، ويحسبون ستة عشر نوعًا مختلفًا. وفي معابدهم، كما يقولون، يبنون أوكارًا وجحورًا كأضرحة في كل زاوية ويصنعون إقامات لثرموثة، وفي فترات زمنية يقدمون لها دهن العجول لتأكله*".

- Aelian. *Characteristics of Animals*. I. 10.31.

[56] أنظر:

- Bryant, Jacob. *A New System, or, An Analysis of Antient Mythology: Wherein an Attempt is Made to Divest Tradition of Fable, and to Reduce the Truth to Its Original Purity*, Vol. 2. London, 1807. p. 200–201.

بعيدا عن الميثولوجيا، وبالعودة إلى علم الآثار، نجد لفظ "عبادير" حاضرا في نقيشة أثرية مكتشفة بمليانة في الجزائر يحمل معنى "الأب القوي" ما قد يوحي بعبادة نظير محلي محتمل للإله ساتورن[57].

نشير أيضا إلى وجود دراسات غربية تتناول بعض المقاربات اللفظية، وبالتحديد، عن الجذر اللغوي الأمازيغي Edder-Iddir الذي يشير في مدلوله إلى معنى "الحي"، وأن المعني Abaddir هو نفسه Baladir "بعل ايدير" الذي يوحي إلى إله سامي بوني يعني تركيبه اللفظي في اللغة القديمة بشمال إفريقيا "الإله الحي"[58]. وهو الذي تكشفه نقيشة أثرية وجدت في قلعة بوصبع بولاية قالمة[59]، ولو أنها لا تقدم الاسم الكامل الذي عرفناه من النقيشة الأثرية التي اكتشفتها بعثة علمية سنة 1887م في سيقوس، إذ وجدت في قاعدة منقوشة لتمثال من البرونز عبارة Deo Patrio Baliddiri Aug Sacrum "بعل ايدير أوغسطس إله البلاد" كلّف الشخص الذي رفعه مبلغًا كبيرا من المال[60]، ناهيك عن نقيشة أخرى اكتشفت في المكان نفسه تسميه حرفيا Baliddirs[61].

---

[57] أنظر:

- IL, Alg. VIII. 21481.

[58] أنظر:

- Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique du Département de Constantine. 3rd vol., 4th series, vol. 34 of the collection. Constantine, 1900. p. 186—188.

[59] أنظر:

- IL. Alg. VIII. 5279.

[60] أنظر:

- Ibid., 19121.

[61] أنظر:

- Ibid., 19122.

وفي رسالته يختم أوغستين بالقول: " ***إذا أردتم منّا أن نناقش هذه المسائل بما يتناسب مع عمركم وحكمتكم وكما يترقّبه أصدقاؤنا الأعزاء، فابحثوا عن موضوعٍ يستحقّ النقاش***".

يبدو أن النخب من الطرفين كانت تتابع أطوار السجال بين القطبين. في زمن الرسالتين أي سنة 390م، كانت بمادورا كنيسة كاثوليكية كما أخبر بذلك أوغستين في رسالته، وكان هناك انتشار واسع للطوائف الدينية ومنهم الأغونيستيكي. هذا النقاش، وبلا أدنى شك، حظي بمتابعة واهتمام النخب المحلية، فقد كانت هذه المواضيع تستنفر وتستثير القوى الدينية النشطة بالمنطقة التي اتّسمت بعدد قليل من المدن الكبيرة وعدد كبير من الممتلكات الخاصة بالجهات المركزية أو المشيخة القبلية، الأمر الذي نجم عنه فراغ استغله السيركونسيليون في هذه المناطق بحكم افتقارها إلى البنية الأسقفية مقارنة بتوزيع السكان. إذ نشأت هذه الحركة في هذا السياق، حيث كانوا رهبانا متجولين بين قبور شهدائهم كما أخبر بذلك الثيولوجي الدوناتي تيكونيوس[62]، ومارسوا نفوذًا كبيرًا على المجتمع الريفي بتدخلهم في الشؤون الدينية والسياسية وتقديم أنفسهم بديلا عن السلطات المدنية والكنسية الرسمية[63].

[62] يخبرنا تيكونيوس بأن أنشطة السيركونسيليون الرئيسية خلال الفترة ما بين 370م-380م، كانت الطواف وزيارة أضرحة ومزارات الشهداء. وقد اتسمت هذه الرحلات الدينية بتقوى دينية عميقة، لكنها عبّرت أيضًا عن إرادة المقاومة في وجه السلطة الإمبراطورية والكنيسة الكاثوليكية.

- Tychonius. *Commentary on the Apocalypse*. Apud Beat. in *Apocalypse*, 26.3. Cf. infra note 153.

[63] أنظر:

- Augustine. *Epistulae ad Cataphrygas*. XX. 53.

نجد أوبتاتوس الميلي يؤكد على أن الأغونيستيكي اعتادوا زيارة بعض الأسواق المهمة التي تجمع السكان المنتشرين في الإقليم ذات الكثافة الريفية العالية[64]، إذ كانت فرصتهم للوعظ والتبشير والحضور المقدس ونشر سرديتهم وبطولات رفاقهم، وبالتالي كانت الألسن تتناقل أحاديثهم وبطولاتهم إلى مناطق الحضر داخل البلدات في المنطقة ما سبب حالة من عدم اليقين أدت بالضرورة إلى متابعة آراء النخب المحلية في هذا الشأن.

ومع ذلك، تبدو أن هذه الدعوة الأوغستينية، وهذه الجلبة الدوناتية، لم تقصم ظهر الوثنية في مادورا، وحتى بعد هذا التاريخ بسنوات لم تثن المادوريين عن عقيدتهم، إذ أنّ النخب المحلية تمسكت بالمدينة الأرضية Civitas Terrena في مجابهة المدينة السماوية Civitas Dei، تماما كما يظهر في الرسالة 232 لأوغستين الذي يبدو أن قضيته مع هذا المكان أخذت أبعادا أخرى تماما إلى حدّ التهجّم عليه، ما استوجبه الردّ عليهم، لكن بلغته السمحة المعهودة.

---

[64] يقول أوبتاتوس في الكتاب الثالث من مؤلفه: "***جاء بولس وماكاريوس لتقديم العزاء للفقراء في كل مكان، وكذلك لحثّ الجميع على الوحدة .ولكن عندما اقتربا من مدينة باغاي، أراد دوناتوس الثاني (كما كتبنا سابقًا)، وهو أسقف تلك المدينة، عرقلة الوحدة ووضع العراقيل أمام ممثلي الإمبراطور المذكورين آنفًا، فقام بإرسال رسله إلى المناطق المجاورة، وبالأخص، إلى جميع الأسواق التجارية، ودعا دروايشه المقاتلين إلى التجمع في مكان حدده لهم. وهكذا، في تلك الظروف، تم استدعاء هؤلاء الرجال الذين اعتبرهم هؤلاء الأساقفة أنفسهم قبل وقت قصير، مجانين يحركهم الشر***".

- The Work of St. Optatus: *Against the Donatists*, translated by O. R. Vassall-Phillips. London and New York: Longmans, Green Publisher, 1917. p. 143.

الرسالة 232

من أوغستين التاغستي إلى أهالي مادورا

تاغست - بعد 395م.

نوميديا - الجزائر

من أوغستين إلى أسياده الكرام وإخوته الأحباء، مواطني مادورا الذين أرسلوا لي رسالة عبر أخي فلورنتين:

إنْ وُجِّهت إليّ هذه الرسالة من مسيحيّ مدينتكم الكاثوليك، فَعَجَبٌ ألاّ تخاطبني باسمهم بل باسمكم جميعا. أمّا إن كانت منكم يا سادة المدينة الكرام أو من غالبيتكم، فأنا أستغربُ من إطلاقكم عليّ لقب "أبيكم"، ومن تصدير الرسالة بعبارة: "السلام في الربّ". فإنّ تعلّقكم بعبادة الأصنام أمرٌ معلومٌ لديّ، وهو مصدر حزن عميق لي. فمن السهل إغلاق معابدكم، لا إغلاق قلوبكم على ما فيها من أوثان. بل أقول: إنّ أصنامكم تسكن قلوبكم أكثر مما تسكن معابدكم. ألا تفكّرون أخيرا، بعقل راجح رصين، في معنى هذا "السلام في الربّ" الذي تحيّونني به؟ فإن لم تفعلوا، فما الذي جرحتُ به مشاعركم الطيبة، أو أسأت إليه، لأستحقّ منكم في مطلع رسالتكم لقبا أكثر تهكما منه علامة احترام، أيها السادة الكرام والإخوة الأعزّاء؟

ما أن قرأتُ عبارة "إلى أبينا أوغستين، سلام أبدي في الرب"، ظننت أنكم قد اهتديتم إلى الرب وإلى الخلاص الأبدي، أو أنكم تنشدون عوني في ذلك. لكنّ ما قرأتُه فيما بعد أثار في نفسي مشاعر أخرى. ومع ذلك سألتُ حامل الرسالة عمّا إذا كنتم مسيحيين أو ترغبون في اعتناق المسيحية، وعندما أخبرني بأنّكم لم تتغيّروا، أحزنني إصراركم على رفض اسم المسيح الذي ترون العالم برمته يخضع له، بل ساءني أن سخرتم منه في شخصي. فأنا لا أعرف سيّدا غير المسيح باسمه قد تنادون أسقفًا بِ "أبي"، وإذا بقي من الشك شيء، فأنتم تقطعوه باليقين فيما أوردتموه من كلمات في ختام الرسالة: "نتمنى لك حياةً طويلةً في الربّ ومسيحه، وسط رهبانك".

بعد أن قرأتُ كل شيء وتمعنت في كل جانب، كان عليّ أن أرى، كما سيرى كل إنسان، إما صدقا ناطقا أو كذبا فاضحا. إذا كنتم تعنون حقا ما تكتبون، فما الذي يمنعكم من بلوغ الحقيقة؟ أيّ عدوٍّ يضعُ أمام جهودكم الأشواك والمطبات؟ وأخيرًا،

من ذا الذي يغلق على رغباتكم باب الكنيسة، لكيلا تتمتّعوا معنا بالخلاص في الربّ نفسه الذي تُحيّونني به؟ أمّا إذا كتبتم إليّ بهذه الطريقة كذبًا وسخريةً، فلِم تُثقلون كاهلي بعبء شؤونكم وتجرؤون على رفض الاحترام الذي يستحقّه من بيده أمري كله، بل تدسّون له السم في كلامكم المعسول؟

أقول لكم هذا وأعلموا إخوتي الأحبة أنّ القلب يرتجف خوفا عليكم، لأني أدري أي منقلب تنقلبون عند الرب إن لم آخذ بيدكم. فما يحدثُ في هذا العالم، وما نقلهُ لنا آباؤنا، وما نراهُ بأعيننا وننقله إلى أبنائنا فيما يتعلق بالبحث عن الدين الحقّ وممارسته، كلّ ذلك نجده في الكتابات الإلهية، وما من شيء يحدث للبشرية إلا ونجد الكتب المقدسة قد تنبأت به. أنتم ترون مصير الشعب اليهوديّ، كيف طُرد من أرضه وتشتّت في أصقاع الأرض. وترون كيف تحقّقت فيه كل النبوءات بدقّةٍ مُذهلةٍ، من أصل هذا الشعب وازدهاره وفقدانه سيادته وتشتّته على وجهِ الأرض.

ترونَ كيف لليهود الذين ولد بينهم المسيح بطريقة معجزة، أن تخرج منهم كلمة الرب وشريعته لتصبح إيمان جميع الأمم. نحن نقرأ النبوءة عن كل هذه الأمور كما نرى تحققها. وترون أجزاء بُترت من جذع المجتمع المسيحي، تنتشر في العالم من خلال الكراسي الرسولية وخلافة الأساقفة. نطلق عليها اسم "الهرطقات" و"الانشقاقات". وهي تغطي نفسها باسم المسيحية، لأن مجدها كله في أصلها. وتفتخر بكونها من خشب الكرمة، وهي خشبٌ مُقطوعٌ عنها. كلّ هذا تم التنبؤ به، وتحقّق تماما كما قدّر له.

ترونَ المعابد الوثنية تنهار دون ترميم، أو تُهدم، أو تُغلق، أو تُستخدم لأغراض أخرى؛ والأصنام تُكسر، تُحرق، تُخفى، أو تُدمّر. وترون قوى هذا العالم التي كانت تضطهد الشعب المسيحي بسبب هذه الأصنام، تُهزم وتخضع، لا بالمقاومة بل بموت المسيحيين؛ وهذه القوى ترونها اليوم توجّه شرائعها وسيوفها ضد هذه الأصنام التي

كان المسيحيون يُذبحون بسببها من قبل. وترون زعماء أعظم إمبراطورية، بعد أن خلعوا التاج، يركعون ويصلّون على قبر الصيّاد بطرس.

إنّ الكتب المقدسة، التي هي بين أيدي الجميع، قد تنبّأت بجميع هذه الأشياء منذ زمن بعيد. إن تحقّقها يمنحنا فرحا أكبر ويقوي إيماننا أكثر، لأننا نرى في كتبنا المقدّسة وهي تتنبأ بحدوثها مرجعية راسخة. فهل نعتقد أيّها الإخوة، ونحن نرى جميع النبوءات تتحقّق؛ أقول: هل نعتقد أنّ دينونة الربّ التي يجب أن تفصل بين المؤمنين والكافرين حسب هذه الكتب نفسها، هي الشيء الوحيد الذي لن يحدث؟ كلاّ، بل ستحدث بالتأكيد كما حدث كلّ ما سبق. ولن يبقى لأحد من زمننا، في يوم الفصل هذا، ما يبرّر به عدم الإيمان لأن اسم المسيح على لسان العالم بأسره. يدعوه الصادق ضمانا لحسن صنعته، والمفتري لتمرير كذبه، والملك للحكم، والجندي للقتال؛ والزوج للوعد بحسن العشرة وبدورها الزوجة للطاعة؛ الأب ليأمر والابن ليطيع؛ السيد ليأمر بلطف والماهن ليخدم بأمانة؛ المتواضع ليحث نفسه على التقوى، والمتكبر ليحفز نفسه بالمثل؛ الغني ليناول، والفقير لينال؛ الثمل وهو يرفع كأسه حتى الثمالة، والمتسول وهو يقف عند الأبواب؛ الصالح ليحفظ كلمته، والطالح للخداع؛ المسيحي في تقوى عبادته، والوثني في مداهنته؛ الكل يحتفي بالمسيح، ويوما ما، سيجزى الكل على الطريقة التي دعوه بها.

هناك كيان غيبي، هو الأصل الذي خلق كل شيء، والسيّدُ الأبديّ الثابت المعروف فقط لنفسه. وهناك الكلمة، هي التي يفصح بها هذا الجلالُ الأعلى ويؤذن، تضاهي من خلقها، ويتجلى هو فيها. وهناك قداسةٌ تبارك كلّ ما يصبح مقدّسًا، وهي تشكل الاتحاد المحكم الذي لا ينفصم بين الكلمة الثابتة التي يتجلى الأصل فيها، وبين الأصل ذاته الذي يتحدث على لسان الكلمة التي تضاهيه.

من ذا الذي يمكنه أن يصل بعين الروح إلى ما حاولت عبثا أن أشير إليه؟ من ذا الذي يمكنه أن يتغلغل في هذه الأعماق اللامتناهية فيصل بذلك إلى السعادة، وينسى نفسه فيها بنوعٍ من الإغماء لشدّة الانبهارِ، ويوغل أكثر فأكثر فيما هو غيبيّ؟ هكذا يزّيّا المرء بالخلود ويحصل على الخلاص الأبديّ الذي تمنيتموه لي! من ذا الذي يمكنه فعل ذلك إن لم يكن ذاك الذي اعترف بخطاياه وأخضع كبرياءه، وصار ليّنا هيّنا ليكون جديرا بأن يعلّمه الربّ؟

طالما يجدر بنا أن ننزل من الكبرياء إلى التواضع حتى نرتقي بعد ذلك إلى عظمة راسخة، لم يكن هناك أسلوب أروع وألطف لدعوتنا إلى ذلك من قمع غرورنا ليس بالقوة بل بالإقناع، من مثال تلك الكلمة التي يظهر بها الربّ الأب للملائكة، فضيلة الرب وحكمته، وهذه الكلمة، والتي لم يكن من الممكن رؤيتها من قبل القلب البشري المعمى بحب الأمور المرئية، تفضّلت بأن تصير إنسانًا وتتجلى في صورة مشابهة لنا، حتى يخشى الإنسان الارتفاع بِعُجبه لا التواضع قُدوةً بالإله.

فالمسيح الذي يُبشَّر به في العالم ليس هو المسيح المتّشح بالعظمة الملكية، ولا المسيح الغني بالخيرات الدنيوية، ولا المسيح المتألق بسعادة هذا العالم، بل هو المسيح المصلوب. هذا ما كان في البداية موضوع سخرية المستكبرين ولا يزال كذلك من بقايا هؤلاء المتكبرين في العالم؛ في وقت لم يكن فيه إلا عدد قليل من المؤمنين، ليس الآن والشعوب تعتنق الإيمان بعدد غفير. وفي الأيام الأولى للبشارة بالمسيح المصلوب، كان العرجى يمشون، والبكم يتكلمون، والصم يسمعون، والعمي يبصرون، والموتى يقومون؛ كان ذلك ردًا على سخرية الناس، وكان الإيمان يتجذر. لقد أدرك كبرياء الأرض أخيرًا أنه لا يوجد شيء أقوى هنا من تواضع إله، ومنذ ذلك الحين، تمكن البشر، مستندين إلى مثال إلهي، من خوض معارك ناجحة ضد كبريائهم.

أفيقوا يا إخوتي في مادورا، يا من كنتم آبائي أيضا، فقد شاء الرب بهذه الفرصة لأكتب لكم. وبمشيئته فعلت ما بوسعي في قضية أخي فلورنتين الذي سلّم لي رسالتكم، ولو أنّ الأمر كان يمكن أن يُحلّ بسهولةٍ دون تدخّلي. فمعظم سكان هيبونا هم بطانة فلورنتين؛ يعرفونه ويرثون لحاله كثيرًا بعد ترملّه. لكنّ الرسالة التي كتبتموها إليّ تجعل رسالتي لا تبدو في غير محلّها وهي تستغل الفرصة التي أتحتموها لي كي أتحدث عنِ المسيح لحشدٍ من الوثنيين.

أرجوكم، إن لم يكن بلا فائدة أن ذكرتم اسمه في رسالتكم، فلتكن رسالتي إليكم ذات جدوى. وإذا كنتم تقصدون السخرية مني، فاتّقوا ذاك الذي سخر منه العالم المتكبر في البداية. لقد حكم عليه بطريقته، والآن هو خاضع لسلطانه ينتظره ليقضي في أمره. وستكون محبتي لكم، والتي أعبّر عنها بقدر ما أستطيع في هذه الرسالة، شاهدة أمام محكمة من سيجزي من آمنوا به ويخزي الكافرين. أسأل الرب الواحد الحقّ أن يخلّصكم من كل غرور الدنيا ويهديكم إليه، يا إخوتي الأحباء وسادتي الكرام!

تعليق

رسالة أوغستين التاغستي إلى أهالي مادورا

يبدو أنّ الرسالة توحي بشكل قاطع أن أهالي مادورا اتخذوا ديانة أوغستين هزؤا، وبادروا بالإساءة إليه بلغة ساخرة مبطّنة، مع أنّ الأخير، فضلا على ارتباطه العاطفي بمدينتهم، يعدّ في زمنه أحد أعظم الفلاسفة اللاهوتيين والمحدّثين المسيحيين. ولذلك لم يتعلق الأمر بردة فعل ناجمة عن حوار مجتمعي أفضى إلى شكل من الاستجابة العامة تجاه دعوة أوغستين المؤسسة فكريا وفلسفيا، وهذا بالرغم من رصيد المدينة فيما يتعلق بالآداب والمعارف والفلسفة والفنون وانفتاحها على النخب، وتاريخها العريق الذي يمتد إلى القرن 3 ق.م.

وهذا الموقف لا تعبّر عنه الطبقة السياسية والدينية فحسب في تعبيرها التهكمي الصريح: "***نتمنى لك حياةً طويلةً في الربّ ومسيحهِ، وسطَ رهبانك***". بل حتى النخبوية التي يمثلها بقوّة ماكسيم المادوري وإن كانت أكثر تهذيبا: "***لتحفظك الآلهة، تلك التي، إن اختلف جميعنا على الأرض في عبادتها وإجلالها بنفس الطريقة، توافق الكلّ في عبادة الأب الواحد للآلهة والبشر***".

يظهر أنّ أوغستين على دراية كافية بحقائق الأمور، وأشار بذكاء إلى السبب الذي يقف دون خلاص المادوريين، وهو الكِبَر "***أسأل الرب الواحد الحقّ أن يخلّصكم من كل غرور الدنيا ويهديكم إليه، يا إخوتي الأحباء وسادتي الكرام***" إذ لا تعوزهم البصيرة والمعرفة للخلاص الأبدي بل الشجاعة للاعتراف بالذنب والتواضع أمام الإله. ولذلك، نجد تلميحات قوية إلى الفلسفة اللاهوتية، إذ يظهر الصراع بين أوغستين وأهل مادورا كصراع بين المدينة السماوية والمدينة الأرضية. من جهة، يسعى أوغستين إلى جذب أهل مادورا إلى المدينة السماوية، أي إلى الحياة الروحية، بينما يرفض أهل مادورا هذا النداء ويصرون على البقاء في المدينة الأرضية التي ترتبط بالماضي وتقاوم التغيير والتجديد. كما يمكن تأويل الصراع بين أوغستين وأهل مادورا كصراع بين الروح والجسد، إذ يسعى أوغستين إلى تحرير الإنسان من قيود الجسد والشهوات الدنيوية، ويريد أن يقوده إلى الحياة الروحية. ويخلص أوغستين إلى تخيير المادوريين بين الحب

الذاتي والحب الإلهي وهو الاختيار الذي سيحدد انتماءهم إلى المدينة الأرضية أو السماوية.

من أجل ذلك، تبنى أوغستين موقفا مزدوجا، من جهة، بنقده الشرس للوثنية السائدة في مادورا، ومن جهة أخرى، بتعاطفه مع سكانها، إذ شعر بمسؤولية كبيرة تجاههم، لدراسته بالمدينة في الصغر أو ربما لأنه ولد بالقرب منها في تاغست، وسعى إلى إنقاذهم روحيًا من الضلال الوثني الذي يعتقد أنه سيطر على حياتهم الدينية والاجتماعية.

إذن، يبدو أنّ ماكسيم فيما سبق، عبّر بصراحة عن الرأي العام المتفق عليه في مدينته، والتي تبدو متمسكة حدّ التطرف بجذورها التاريخية والثقافية والعقائدية الراسخة إلى وقت متأخر من زمن الإمبراطورية. المدينة كانت موطنًا لأغلبية وثنية، وبها جالية مسيحية صغيرة، وتعيش زمنا انتقاليا، وربما كانت النخب الوثنية تشعر بالتهديد من التوسع المسيحي المتزايد، الأمر الذي دفع أوغستين ألا يتحدث فقط من منطلق ديني بحت، بل من جوانب ثقافية وفكرية أيضا، إذ أنّ الوثنية في مجمل كلامه هي تعبير عن تراجع عقلي وأخلاقي لا يناسب تقدم الإنسانية، وممارساتها لا تعكس إيمانًا حقيقيًا بل مجرد تقليد اجتماعي متهاوٍ.

من الرسائل الثلاثة السابقة، والحوار الذي يبدو أنه أتى في وقت متأخر عنها كونه يعبر عن عصارة فكر ماكسيم المادوري في مسائل الثيولوجيا، يمكن القول إنّ النحوي الشهير، وأستاذ الآداب اللاتينية بمادورا، أبدى في نهاية عمره وفي وقت قياسي تحولا تاما من أعراف مدينته الوثنية إلى قناعات عقائدية مؤسّسة فلسفيا. ويظهر فيما سبق أنّ موقف ماكسيم الرافض للديانة السماوية مردّه التعصب للموروث العقائدي والارتباط القوي بأعراف المكان، والذي يبدو أنّ سطوتها كانت شديدة حتى على النخب ذات التكوين العالي من أمثال معلمنا الشهير.

يخلص بنا هذا الكتاب إلى تكوين فكرة شاملة عن شخصية هذا المفكر النوميدي الكبير، والمعلم الحكيم الذي يبدي منهجية أكاديمية في تأسيس رؤاه الفكرية، باستخدامه المنطق والحجة في بناء أفكاره، مع الانفتاح الصريح على أفكار الآخرين، والتي تحفظ على الدوام الإطار الأخلاقي، والموروث الاجتماعي الذي يبدي ماكسيم المادوري تحفظا شديدا بشأنه. من جهة أخرى، يملك معلمنا قدرة كبيرة على إيصال أفكاره بطريقة واضحة ومقنعة بما نراه من أمثلة تسبق آراءه، ملتزما بالواقعية والعقلانية في طرحه بالتركيز على العالم المادي والحياة الحاضرة، مع رفضه الصريح للخرافات والأساطير، ولذلك يركز على أهمية العقل في فهم العالم والكون، وهو الذي قاده للتوحيد في منظوره الفلسفي، وإلى أنّ حرية الإنسان محدودة بقوانين الطبيعة وإرادة هذا الإله الواحد، وإلى أهمية الفضيلة وحسن الجزاء عنها في الحياة قبل الموت، وإلى قبول الموت كجزء طبيعي من الحياة. وقد نجح ماكسيم المادوري إلى حد بعيد في التأسيس لفكر فلسفي خالص به قاده إلى التوفيق بين العقل والدين، إذ كان مؤمناً بوجود إله واحد خالق للكون، وسعى إلى تفسير هذا الإيمان بطريقة عقلانية. ولذلك لم يظهر مقبلاً على جميع المعتقدات الدينية، بل كان ينقدها بعقله ويستبعد ما يراه غير منطقي. أما فلسفيا، فقد كان من أوائل الفلاسفة الذين حاولوا التوفيق بين الفلسفة اليونانية والدين التوحيدي، بسعيه إلى استيعاب المفاهيم الفلسفية اليونانية، مثل نظرية الأشكال الأفلاطونية - على سبيل الذكر - والزج بها ضمن إطار تفكيره اللاهوتي. رأى أنّ الشكل الأعلى هو الله نفسه، وأن العالم المادي هو خلق لله، وأن الروح تحمل في داخلها صورة الله. وهذا الذي يدل بشكل قاطع أنه وظف الفلسفة لإدراك الحقيقة الدينية. ماكسيم أبدى أيضا اهتماما بالأخلاق والفلسفة العملية، فقد كان يرى أنّ هدف الحياة هو تحقيق الفضيلة والسعادة الأخلاقية، وكان يسعى لذلك بتطبيق الفلسفة على الحياة اليومية، وتحويل المعرفة الفلسفية إلى سلوك عملي، ولذلك خصّ الإنسان بنظرة عميقة، ككائن اجتماعي عاقل ديني، ترتبط سعادته بسعادة المجتمع، ويمتاز عن الخلق بعقله، ويبحث بطبيعته عن المعنى والدين

الحق في هذا الوجود، كجزء في هذا الكون المخلوق من الصانع الذي يحرّكه وفق قوانين ثابتة ويربط به كل أشكال الوجود.

وفي خضم هذا العرض الشامل لأفكار ماكسيم المادوري، نجد أنفسنا أمام شخصية فكرية جمعت بين عمق الفلسفة وحكمة الدين. لقد كان أكثر من مجرد مفكر، بل كان معلما للأجيال. فمن خلال تأسيسه النقدي للمعتقدات الدينية، وسعيه الدؤوب للتوفيق بين العقل والإيمان، قدّم لنا نموذجاً للإنسان المتفكّر الذي لا يخشى طرح الأسئلة الصعبة والبحث عن أجوبة شافية.

إن ما يميز فكر المادوري هو قدرته على ربط الفلسفة بالحياة اليومية. فلم يكن يرى الفلسفة محض نظرية مجردة، بل أداة لفهم العالم وتحسينه. وقد تجلى ذلك في اهتمامه بالأخلاق والفضيلة، وفي سعيه لبناء مجتمع عادل قائم على مبادئ المساواة والإنصاف. ولكن ما يثير الإعجاب حقًا هو القدرة التي أبداها في التوفيق بين التراث الثقافي القائم والفكر التوحيدي الناشئ. لقد استطاع أن يستلهم من الفلسفة اليونانية أدوات معرفية جديدة، وفي الوقت نفسه أن يحافظ على إيمانه الراسخ. وهذا التوفيق ليس بالأمر السهل، ولكنه يشهد على عمقه وقدرته على تجاوز الحدود الفكرية.

إن دراسة فكر ماكسيم المادوري لا تقتصر على أهميتها التاريخية، بل تمتد لتشمل تأثيراتها الفكر الإنساني المعاصر، لأن موضوعات مثل العلاقة بين العقل والإيمان، وأهمية الأخلاق في بناء المجتمع، لا تزال تشغل بال المفكرين اليوم. ومع ذلك، فإن فكر المادوري يفتح المجال للنقد، إذ أنّ محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين قد تؤدي أحيانا إلى بعض التناقضات. قد يعزى ربما في حالة ماكسيم إلى تشبثه بأهمية التقليد، الأمر الذي قيّد قدرته على طرح أفكار جديدة ومبتكرة. ويبقى معلمنا شخصية فكرية ملهمة، تدعونا إلى التفكير النقدي والبحث المستمر عن الحقيقة. فمن خلال دراسة أفكاره، نستطيع أن نكتشف جوانب جديدة من أنفسنا

ومن العالم حولنا. كما نستطيع أن نتعلم كيف نجمع بين التراث الثقافي والقيم المعاصرة، وكيف نبني جسورًا بين مختلف التيارات الفكرية، والأهم، أن نتعلم التسامح وتقبل الاختلاف فيما بيننا ...

هذا الكتاب ليس له نهاية، بل في كل زاوية منه بداية لحوار مستمر حول قضايا الوجود والمعنى والحقيقة!

تمثال الإله ماركور - الموقع الأثري مادورا (مداوروش - سوق أهراس)



تمثال الإله ماركور - الموقع الأثري مادورا (مداوروش - سوق أهراس)

متحف قالمة